الفصل الأول

الحياة السياسية

استيلاء الترك على مقاليد الحكم

مر بنا في العصر العباسي الأول كيف هيأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السرية لإمام هاشمي يخلص الموالي فرسا وغير فرس من حكم بني أمية الجائر، محققا لهم المساواة المشروعة- بحكم الإسلام- بينهم وبين العرب في جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكتسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاء مبرما. وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعي في الحكم والخلافة، وبذلك استأثروا بها من دون أبناء عمهم العلويين، مما جعل كثيرين منهم يثورون عليهم طوال العصر، كما جعل أنصارهم يدعون لبيتهم العلوي سرا كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، في حين مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهي في الحكم والسلطان وتمادوا في حكم استبدادي أشد ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجاب، أما الشعب فلم يزد في رأيهم عن أن يكون أدوات مسخرة لجمع الخراج والضرائب الفادحة، مما دفع لقيام ثورات إيرانية مختلفة، على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الأول. وحقا كانت أعلى المناصب وأكثرها في أيدي الفرس، وكان منهم أكثر من الوزراء والقواد، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بني سهل. ونشب من جراء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب، فالعرب يريدون استرداد مجدهم في العصر الأموي والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث في الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقا، مما أعد لظهور تيار شعبي بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقل عنه عنفا ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعا. وفي أثناء ذلك كانت الثورات مضطرمة في شرقي الدولة، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى، وكان آخرها اندلاعا ثورة بابك الخرمي في أذربيجان التي ظلت نحو عشرين عاما والتي كلفت الدولة كثيرا من الجيوش إلى أن سحقها المعتصم وقواده سحقا.

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر في عنصر جديد يعتمد عليه في حروبه سوى الفرس، فثوراتهم لا تنقطع، وأمانيهم في إحياء مجدهم القومي لا تخمد، واستظهارهم للشعوبية والزندقة لا تهدأ فورته، وهداه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ظلال

الرماح، مع حذقه بالرمي يمنة ويسرة ومقبلا ومدبرا. وهو الرقيق التركي الذي كثر توافده على بغداد والعراق، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفرغانة وأشروسنة إلى أن بلغت عدته ثمانية عشر ألفا[١]، وكل يوم يزيد، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها. وكان جمهور هذا الرقيق بدواً جفاة فكانوا يركبون الخيل ويركضونها في الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء، مما اضطر المعتصم أن يبني لهم مدينة سامراء[٢] شمالي بغداد، وانتقل معهم إليها، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتمد سنة ٢٧٦ للهجرة.

وكان ذلك تحولا خطيرا في تاريخ الدولة العباسية، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فبثوهما في الحياة العربية، وأعدوا لنهضة حضارية واسعة تستقي منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية المختلفة، وخاصة الثقافتين اليونانية والفارسية. أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة، إذ كانوا بدوا لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس، وقد صورهم الجاحظ تصويراً دقيقاً في رسالته التي تحدث فيها عن مناقبهم قائلا: "الترك أصحاب عمد (خيام) وسكان فياف وأرباب مواش، وهم أعراب العجم... فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة، ولا غرس ولا بنيان ولا شق أنهار ولا جباية غلات، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها، أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم، فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات... وكآل ساسان في الملك والرياسة".

وهؤلاء البدو الموغلون في البداوة الذين لم يعرفوا بحضارة ولا ثقافة ولا عرفوا بزراعة ولا صناعة ولا تجارة ولا بسلطان ولا بسياسة سرعان ما قبضوا على زمام الحكم، والمعتم هو الذي هيأ لهم ذلك لا بجعلهم جند الخلافة العباسية فحسب، بل أيضا باتخاذه لهم مدينة خاصة وجعلها عاصمة الدولة، فأتاح فهم الفرصة كي يخلي بينهم في المستقبل وبين الخلفاء، فيصبحوا مسخرين بأيديهم يصرفونهم كما يشاءون. وليس ذلك كل ما صنع فقد ولى كبيرهم "إشناس" مصر وجعل

---

[١] النجوم الزاهرة ٢/٢٣٣

[٢] أنظر في تخطيط سامراء والسبب في بنائها كتاب البلدان لليقعوبي ، ومعجم البلدان لياقون وسامراء في دائرة المعارف الإسلامية وبلدان الخلافة الشرقية تأليف لسترانج وجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد.

له الحق في أن يولي عليها ولاة من قبله، فكان يدعي له فيها على المنابر[١]. وبذلك فتح المعتصم الباب لقواد الترك كي يمسكوا بزمام الشئون الإدارية بجانب ما أمسكوا به من زمام الشئون العسكرية. وخلقه ابنه الواثق فزاد الطين بلة إذ ولى إشناس من بابه في بغداد إلى آخر أعمال المغرب، جاعلا له أمر كل هذه البلدان يولي عليها من شاء بدون مراجعته، واستخلفه على السلطنة وألبسه وشاحين بجوهر[٢]. وليس ذلك فحسب ما أسبغه على الترك، فقد ولى على الجانب الشرقي للدولة من كور دجلة حتى خراسان والسند "إيتاخ"[٣] حتى إذا توفى إشناس سنة ٢٣٠ منحه مرتبته وأكثر أعماله[٤]. ولم يقف تجني الواثق على الخلفاء من بعده عند هذا الحد، فقد ارتكب خطأ خطيراً في حقهم بانصرافه عن اتخاذ ولي عهد بعده للخلافة، وسرعان ما استغل قواد الترك: أيتاخ وصاحباه وصيف وبغا الكبير هذه الفرصة حين توفى سنة ٢٣٢ للهجرة، إذ حملوا رجال الدولة على البيعة للمتوكل، وكان ذلك نذير شؤم إذ أصبحت تولية الخلفاء فيما بعد بيد الترك، وعما قليل سيصبح غزلهم– كما سنرى– بأيديهم، وبذلك يتحول إليهم السلطان جميعه، ونصبح منذ خلافة المتوكل بإزاء عصر جديد هو العصر العباسي الثاني.

ويبدو أن المتوكل تنبه– منذ استيلائه على الحكم– إلى خطورة ازدياد النفوذ التركي، مما دفعه إلى التخلص سريعا من إيتاخ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالي وديوان الخبر أو البريد والحجابة والقيام على دار الخلافة، وكأنه نائب للخليفة، بل لكأنما أصبح الخليفة ولا سلطان له، مما جعل المتوكل يوحي إلى بعض أوليائه أن يشيروا على إيتاخ بالاستئذان للحج، وما إن خرج من سامراء وأبعد في الطريق إلى مكة حتى عزله المتوكل عن الحجابة ولاها وصيفا التركي[٥]. وهي سياسة سيتبعها الخلفاء بعد المتوكل أن يضربوا قواد الأتراك بعضهم ببعض. وعاد إيتاخ من الحج ودخل بغداد فقبض عليه حاكمها بأمر من المتوكل وأودعه غياهب السجون مقيدا بالحديد إلى أن توفى لسنة ٢٣٥. ولكن المتوكل لم يسدد للترك ضربة قاضية، بل أخذ يراوغهم، مما جعله يضيف بغا الكبير إلى وصيف في الحجابة. وتتوالى السنوات وهو ضيق بقادة الترك ويفكر في التخلص منهم جميعا ويهديه تفكيره في سنة ٢٣٤ أن يترك سامراء ويتخذ دمشق حاضرة له، حتى يصبح بمنأي عن الترك وشرورهم، ويشخص إليها في ذي القعدة، ويبدو أن فكرته ذاعت في الناس مما جعل يزيد بن محمد المهلبي ينشد من قصيدة طويلة[٦].

---

[١] النجوم الزهارة ٢٢٩/٢.

[٢] اليعقوبي (طبعة النجف) ٢٠٥/٣

[٣] اليعقوبي ٢٠٥/٣

[٤] اليعقوبي ٢٠٦/٣

[٥] تاريخ الطبري (طبع دار المعارف) ١٦٧/٩ وما بعدها.

[٦] الطبري ٢٠٩/٩

أظنّ الشام تشمت بالعراق إذا عزم الإمام على انطلاق

فإن زرع العراق وساكنيها فقد تبلى المليحة بالطلاق

ودخل المتوكل دمشق في صفر سنة ٢٤٤ عازما على المقام بها ونقل دواوين الخلافة إليها، وأمر أن يبنى له بها بعض القصور. غير أن الترك فطنوا لمأربه، وأنه يريد الإطاحة بهم فطالبوا برواتبهم، وهو سيف سيظلون يشهرونه على الخلفاء كلما أرادوا بهم منهم أمراً أو أرادوا لهم عزلا، واضطر المتوكل أن ينزل على إرادتهم وأن يبرح دمشق بعد نحو شهرين[١]. وعاودته الفكرة، ولكن لا بعيداً، بل قريباً، شمالي سامراء، إذ فكر في انتقاله إلى الماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ منها وأقطع القواد وحواشيه فيها، وسماها " الجعفرية "، وبني لنفسه فيها قصره "الجعفري" وقصرا سماه "اللؤلؤة" وقصورا أخرى. وفي أثناء ذلك أخذ يجفو الترك ويجيل الآراء في استئصالهم والاستبدال بهم، وكان أول ما صنعه من ذلك أن ضم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان اثني عشر ألفا من العرب [٢]، وكأنه يريد أن يعيد العرب إلى الجيش وقيادته. وترامت شائعات بأنه يريد أن يفتك بحاجبيه وصيف وبغا الكبير وغيرهما من قواد الترك، فصمموا على مبادرته، وكانت الأمور قد ساءت بينه وبين ابنه المنتصر ولي عهده، فوضع يده في أيديهم، وعزموا على قتله والتخلص منه، وأعدوا لذلك نفراً من أصاغر الترك. منهم بغا الشرابي وباغر وموسى بن بغا الكبير فدخلوا عليه هو ووزيره الفتح بن خاقان في ليلة من ليالي شوال سنة ٢٤٧ للهجرة، وقتلوهما غير مراعين فيهما عهداً ولا ذمة[٣]. ومن حينئذ أصبح للترك كل شيء في الدولة ولم يعد للخلفاء شيء، وفي ذلك يقول ابن الطقطقي: "استولى الأتراك منذ قتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، وإن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه"[٤].

واعتلى المنتصر عرش الخلافة بأيدي قتلة أبيه من الترك، بايعوه ثم أخذوا له البيعة من الناس، ولم يلبثوا أن حضوه على خلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد بعده، وكان المتوكل أبرمها لهما مع المنتصر، فخشى الترك أن يخلفه أحدهما فيبطش بهم ثأراً لأبيه، وتم خلعهما. وتوفى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته لسنة ٢٤٨ فاجتمع بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش ابن أخت بغا الكبير، وكانوا قد أخذوا المواثيق على من سواهم من قواد الترك والمغاربة والأشروسنية على أن يرتضوا من يرضونه للخلافة، واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه

---

[١] مروج الذهب المسعودي (طبعة دار الأندلس) ٣٢/٤ والطبري ٢١٠/٩

[٢] التنبيه والإشراف للمسعودي (طبعة أوربا) ص٣٦١.

[٣] طبري ٢٢٥/٩.

[٤] الفخري في الآداب السلطانية (طبع المطبعة الرحمانية بمصر) ص١٨١.

بالمستعين، وبايعوه وبايعه الناس. وتوفى بغا الكبير وأصبح أوتامش المتصرف الأول في شئون الدولة، وأخذ يختزن أموالها هو وشاهك وأم المستعين، فكل ما يرد من الآفاق يصير إلى الثلاثة، ووصيف وبغا الشرابي الصغير بمعزل من ذلك مما أثار حفيظتهما على أوتامش وجعلهما يغريان به القواد الآخرين حتى ثاروا عليه وسفكوا دمه وانتهبوا داره[١]. واستدارا إلى باغر قاتل المتوكل، وكان شره قد تعاظم في قصر الخلافة فقتلوه بدوره. وسئم المستعين حركات الترك ودسائسهم، فرأى النزول إلى بغداد والاستقرار بها، وجزعوا لصنيعه، فأرسلوا إليه وفداً يسترضيه سنة ٢٥١، ولكنه رفض العودة إلى سامراء، فخلعوه، وبايعوا المعتز بالله ولي العهد القديم للمتوكل بعد المنتصر، فكان هناك خليفة مولى بسامراء وخليفة معزول ببغداد، هو المستعين، ونشبت الحرب بينهم وبينه، وحاصروا بغداد، وما زالوا به حتى خلع نفسه من الخلافة وانحدروا به إلى "واسط" وهناك تم تدبير قتله[٢]. وبذلك أصبحت الخلافة خالصة للمعتز سنة ٢٥٢ وسمع بأن نفراً من الترك يراودون أخاه المؤيد على تولي الخلافة وعزله، فسجنه ثم فتك به. وأخذ يحاول الفتك بقواد الترك مستثيراً ضدهم المغاربة والفراغنة، وفتك بوصيف وبغا الشرابي الصغير قاتل أبيه، يقول المسعودي: "ولما رأى الأتراك إقدام المعتز على قتل رؤسائهم وإعماله الحيلة في إفنائهم وأنه قد اصطنع المغاربة والفراغنة صاروا إليه بأجمعهم لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وجعلوا يقرعونه بذنوبه ويوبخونه على أفعاله وطالبوه بالأموال (رواتبهم) وكان المدبر لذلك صالح بن وصيف مع قواد الأتراك[٣]. وأرسلوا توا إلى بغداد في طلب محمد بن الواثق، وأمروا المعتز بأن يخلع نفسه من الخلافة وصدع بأمرهم، وبايعوا محمداً ولقبوه بالمهتدي، وسجنوا المعتز ثم قتلوه سريعاً. وحاول المهتدي أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز في العدل ورفع المظالم والاقتصاد في النفقات، ويقال إنه أمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم، وقرب العلماء ورفع منازل الفقهاء وحرم الشراب ونهى عن القيان فثقلت وطأته على الخاصة والعامة. وكان قد مضى مثل ابن عمه المعتز يفتك برؤساء الأتراك وقادتهم وفي مقدمتهم صالح بن وصيف وبايكباك أحد زعمائهم، فقتلوه في رجب[٤] سنة ٢٥٦.

ويتولى الخلافة المعتمد أحمد بن المتوكل، يبايعه الترك ثم تبايعه العامة، وكانت ثورة الزنج قد نشبت في عصر المهتدي، وعبثاً استطاع قواد الترك أن يجهزوا عليها، إذ استفحل شرها وتفاقم، فضعف شأنهم من جهة، وشغلوا من جهة ثانية عن لعبهم المعتاد بالخلفاء، وخلعهم وسفك

---

[١] طبري ٩/٢٦٣ .

[٢] طبري ٩/٣٤٨ ومروج الذهب ٤/٧٧.

[٣] مروج الذهب ٤/٩٣.

[٤] طبري ٩/٤٥٦ ومروج الذهب ٤/٩٦.

دمائهم. ويتاح للمعتمد ودولته قائد عظيم من أهل بيته هو أخوه أبو أحمد طلحة الملقب بالموفق فيقود بنفسه المعارك مع الزنج ومع من ثاروا بإيران ويكتب له الظفر والقضاء على الزنج قضاء مبرماً، وبذلك يرد إلى الخلافة العباسية هيبتها، ويحني الترك رءوسهم لها ولا نعود نسمع بفتنة حجاب الخليفة عليه وتدبيرهم لخلعه، وكانوا حينئذ يارجوخ وكيغلغ وبكتمر بن طاشتمر، وقد ظلوا جميعاً يصدعون لأوامره وأوامر أخيه الموفق حتى توفيا جميعاً، وبويع من بعده لسنة ٢٧٩ ابن أخيه الموفق أبو العباس أحمد ولقب بالمعتضد، وكان قد أبلى مع أبيه في حرب الزنج وغيرها من الحروب بلاء حسناً فهابه الترك وقوادهم، ونراه في سنة ٢٨٢ يقبض على كبيرهم بكتمر بن طاشتمر ويسجنه ويصادر أمواله وضياعه ولا يحركون ساكناً رهبة منه وهيبة له[١]، وظلوا من بعده خانعين لابنه المكتفي الذي ولي الخلافة سنة ٢٨٩ غير أنه اقترف خطأ فاحشاً إذ ارتضى أخاه المقتدر وهو صبي ولياً للعهد من بعده، وكان حرياً به أن يجعل ولاية العهد في شخص حصيف من أهل بيته يستطيع أن يقف الترك وقادتهم عند حد من السلطان لا يتجاوزونه. وتوفى سنة ٢٩٥ فخلفه المقتدر وهو في الثالثة عشرة من عمره، وعظم كلام الناس فيه، وقالوا كيف يلي الخلافة من لم يبلغ الحلم، وأجمع أمرهم على أن يتولاه عبد الله بن المعتز، وأخذ له البيعة على الناس محمد بن داود ابن الجراح الفقيه والأديب المشهور، وبايعه القضاة والعدول، وتلقب بالمنتصف وقيل بالراضي وقيل بالقائم بالحق وتقلد ابن الجراح الوزارة ولكن الأمر لم يدم له أكثر من يوم وليلة، إذ ثار الترك عليه يتقدمهم كبيرهم مؤنس، وأخذ عنوة وقتل، وتفجع عليه كثير من الشعراء. أما ابن الجراح فاستتر مدة ثم انكشف أمره، وقتل بدوره، وعادت الخلافة إلى المقتدر[٢]، وعاد الترك إلى نفوذهم القديم قبل المعتمد وأخيه الموفق. وزاد الأمور سوءاً أن أم المقتدر "شغب" وهي أم ولد رومية شركت مؤنساً في تصريف شئون الحكم والسياسة، فكانت الوزارة لا تسند إلى شخص في عام حتى ينحى عنها في عام قابل، ودارت الأيام، فإذا مؤنس يسخط على المقتدر وتعود مع السخط قصة رواتب الجند، ويتفاقم الأمر بينهما في سنة ٣١٧ ويعزل الخليفة ويولى أخوه محمد ويلقب بلقب القاهر بالله، ويرتق الفتق بين مؤنس والمقتدر فيعيده إلى الخلفة ويجدد له البيعة[٣]. وما تلبث السماء أن تكفهر، فيعود الصدام بين مؤنس والمقتدر، ويقتل الخليفة سنة ٣٢٠ يولي مؤنس الخلافة بعده القاهرة بالله، وكان شجاعاً غير أنه كان أحمق أهوج شديد الإقدام على سفك الدماء، وكان لا يكاد يصحو من سكر، ومع ذلك حرم على الناس الخمر والسماع، واستطاع القضاء على مؤنس ونفر من القواد[٤] ففسد ما بينه وبين الترك وسرعان ما خلعوه سنة

---

[١] طبري ١٠/٤٠.

[٢] طبري ١٠/١٤٠-١٤١

[٣] تكملة تاريخ الطبري للهمداني (طبعالمطبعة الكاثوليكية ببيروت) ص ٥٨ .

[٤] مروج الذهب ٤/٢٢١ والهمداني ص ٧٨ .

٣٢٢ وسملوا عينيه[١]، وبايعوا بعده الراضي بالله أبا العباس أحمد بن المقتدر، وظل يلي الخلافة حتى توفى سنة ٣٢٩، وفي عهده تغلب أصحاب السيوف ولم يعد للخليفة سوى الاسم. وكان شاعراً بليغاً سمحاً واسع العطاء مات وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وخلفه أخوه المتقي بالله، وكان تقياً صالحاً، إلا أنه لم يكن على بصر بالحكم والسياسة، فحدثت في زمنه فتن وحروب كثيرة بين الجند ونهبت دار الخلافة، وقبض عليه لسنة ٣٣٣ وخلع وسملت عيناه[٢]. وتولاها بعده المستكفي بالله ابن المكتفي، ولم يكد يدور به عام في خلافته حتى نزل معز الدولة البويهي بغداد، فلقبه المستكفي بأمير الأمراء وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة وعقد له لواء. غير أن معز الدولة لم يلبث أن أمر بالقبض عليه، فخلع من الخلافة ونهبت داره وسملت عيناه[٣]، وبذلك ينتهي العصر العباسي الثاني بدخول البويهيين الفرس بغداد وزوال تسلط الترك وقوادهم على مقاليد الحكم دون مآب.

---

[١] مروج الذهب ٢٢١/٤ والفخري ص ٢٠٥ .

[٢] الفخري ص ٢١٠ ومروج الذهب ٢٤٧/٤ والهمداني ص ١٤٣ .

[٣] مروج الذهب ٢٧٦/٤ والفخري ص ٢١٢ والهمداني ص ١٤٩ .

obeikandl.com

٢

تدهور الخلافة[١]

رأينا الترك يسيطرون على أداة الحكم بعد مقتل المتوكل في السنوات الثمان التي تلته، ثم منذ عصر المقتدر، إذ كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة، ولم يكن للخلفاء حينئذ أي سلطان، ومن أين يأتيهم السلطان والترك يولونهم ويعزلونهم بل يسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر أو يدعون فإنما هو بتدبيرهم؟ وصور ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين (٢٤٨ – ٢٥٢ هـ)، فقال:

خليفة في قفص　　بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له　　كما يقول الببغا

فالخليفة حينئذ كان أشبه ما يكون ببغاء في قفص يردد ما يقوله مخاطبه ولا أمر يملكه، فالأمر كله لحاجبيه: وصيف وبغا، حتى إذا دارت فكرة خلعه بذهنيهما خلعاه، ووليا بعده المعتز بالله (٢٥٢ – ٢٥٥ هـ) ويروي أنه لما جلس على سرير الخلافة أحضر أصحابه المنجمين وسألوهم كم يظل خليفة للمسلمين؟ وكم يعيش؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أعرف من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمره، فقالوا له: فكم تقول إنه يعيش ؟ وكم يملك ؟ فقال: طالما أراد الترك ذلك، فلم يبق في المجلس أحد إلا غلبه الضحك[٢]. ولم يمكث المعتز في دست الخلافة سوى ثلاث سنوات إذ سرعان ما خلعه الترك وسفكوا دمه، وولوا بعده المهتدي (٢٥٥–٢٥٦ هـ) وكان حسن السيرة ورعاً تقياً أطرح الملاهي وحرم الشراب والغناء، وكأنما آذت الترك سيرته الطاهرة فخلعوه، وولوا المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ)، وكان منهمكاً في اللهو واللذات غير أن أخاه طلحة الذي لقلب بالموفق نهض بالأمر من دونه فثبت الخلافة إلى أبعد حد، وأعاد إليها بحزمه وعزمه وجده هيبتها ومكانتها المهدرة، وقد ترك أخاه عاكفاً على ملذاته، واحتمل أعباء الخلافة في البطولة والحرب والنفوذ من المشكلات الصعاب، بحيث أصبح هو الخليفة الحقيقي، أما أخوه المعتمد فلم يكن له من الخلافة سوى الاسم وصور ذلك بنفسه قائلاً:[٣]

أليس من العجائب أن مثلي　　يرى ما قل ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً　　وما من ذاك شيء في يديه

---

[١] مروج الذهب ٤/٦١.

[٢] الفخري ص ١٨١.

[٣] الديارات للشابشي (الطبعة الثانية – مطبعة المعارف ببغداد) ص١٠١.

وتصادف أن توفى الموفق قبل المعتمد بقليل وكان ولياً للعهد، فجعل المعتمد ولاية العهد لابنه المعتضد وكان مثل أبيه بطلاً مغواراً، فولى الخلافة بعد عمه المعتمد (٢٧٩ – ٢٨٩)، فأكمل لها ما أحاطها به أبوه من العزة والمهابة، فلم يرتفع للترك في عهده صوت، وكان اسمه – كما مر بنا – أبا العباس أحمد فتلقب بالمعتضد بالله، وفيه يقول ابن تغري بردي: "كان المعتضد شجاعاً مهيباً أسمر نحيفاً معتدل الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد رجالات بني العباس وشجعانهم، كان يتقدم إلى الأسد وحده"، ويقول: "هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده في إدبار" [١]. وخلفه ابنه المكتفي (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ) وكان قصير النظر فاتخذ ولي عهده أخاه المقتدر وهو لا يزال صبياً، فولى بعده الخلافة (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ) ،وسنة ثلاث عشرة، فكأن كل ما أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد قوضه في لحظات، فبمجرد أن تسلم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم وعاد معهما الخلع وسفك الدماء، وزادوا سمل الأعين.

وإذا كان المكتفي أخطأ في أواخر العصر بتولي أخيه المقتدر للعهد وهو صبي فإن المتوكل اقترف بدوره خطأ عظيماً في أوائل العصر، إذ عقد ولاية العهد لثلاثة من أبنائه[٢]، وكان حرياً به أن يتعظ بجده الرشيد وتوليته العهد للأمين والمأمون والقاسم، مما جر بلاء كبيراً ذهب ضحيته الأمين وأحرقت بغداد على نحو ما مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول، فكان حرياً بالمتوكل ألا يعرض أبناءه للتنافس على الخلافة، وكان المنتصر أولهم في الولاية، ويليه المعتز والمؤيد، فأوغر المتوكل صدره حتى اصبح خصماً له. وإذا كانت حادثة الرشيد جرت مقتل ابنه الأمين فإن صنيع المتوكل أدى إلى مقتله وسفك دمه. وكأن المتوكل هو الذي هيأ للترك أن يغلبوا على الخلافة وأن يصبحوا هم اصحاب السلطان الحقيقي يولون ويعزلون ويسجنون ويقتلون، وتمادوا في ذلك حتى رد الموافق إلى الخلافة مهابتها، وتبعه في صنيعه ابنه المعتضد، ولكن لم يلبث المكتفي أن هوى بها من حالق، فعاد غلى الترك كل سلطانهم وكل بغيهم وعدوانهم على الخلافة والخلفاء.

وكان من أهم الأسباب في تدهور الخلافة العباسية أن كثرة الخلفاء انغمست في اللهو والترف والإقبال على كل متاع مادي من بناء قصور باذخة ومعيشة كفلت لها كل وسائل النعيم وأدواته، وأولهم المتوكل، ونراه لا يبني لنفسه بسامراء قصراً واحداً، بل قصوراً ينفق عليها أموالاً طائلة، منها الشاه والعروس والشبداز والبديع والغريب والبرج، ويقال إنه أنفق على القصر الأخير مليوناً وسبعمائة ألف دينار. وبني في سنة ٢٤٦ بالماحوزة على بعد ثلاثة فراسخ من سامراء شمالا

---

[١] النجوم الزاهرة ١٢٧/٣ – ١٢٨ .

[٢] طبري ١٧٥/٩ ومروج الذهب ٥/٤ والنجوم الزاهرة ٢٨٠/٢.

قصوراً عدة، منها الجعفري والهاروني واللؤلؤة، كلفته ملايين الدنانير[١]. ويروي أنه سأل شخصاً حين أتم بناء الجعفري كيف قولك في دارنا هذه؟ فأجابه بقوله: إن الناس بنوا الدور في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في دارك[٢]، وهو سفه وخرق، فالخليفة لا يفكر إلا في نفسه وملذاته، وكأن ليس هناك جيوش تعد للحرب بأسلحتها وعددها الكثيرة، وكأن ليس هناك رعية يقوم الخليفة على مصالحها، فيبني لها المستشفيات ويوفر لها الغذاء والكساء، بل الرعية تكدح وتشقى وتذوق مرارة الشقاء والكدح لينعم الخليفة ويلهو ويبني القصور ويملأها بالجواري من كل لون. وتبع الخلفاء المتوكل يقتدون بسيرته السيئة، ما عدا المهتدي والمتقي وكانت مدة خلافتهما قصيرة، وحتى المعتضد الفارس الحازم حزماً لا يدانيه حزم يقول عنه المسعودي لم تكن له رغبة إلا في النساء والبناء، ويذكر أنه أنفق على قصره المعروف بالثريا أربعمائة ألف دينار، وكان مجموعة من الدور والقصور تمتد ثلاثة فراسخ[٣]. ثم تكون النكبة الكبرى بتولي المقتدر الخلافة وهو صبي، ويقال إنه كان في قصره أحد عشر ألف غلام خصى من الروم والصقالبة والسودان، ويقال أيضاً إنه أتلف من الأموال ثمانين مليوناً من الدنانير[٤]. غير ما بدده من الجواهر الثمينة التي كانت تحتفظ بها خزائن الدولة منذ خلفائها الأولين.

وطبيعي أن يقضي هذه السفه على هيبة الخلافة وأن يستذلها الترك وخاصة حين يطلبون للجيش رواتبه فيجدون الخزينة خالية الوفاض. وقد فسد حينئذ الحكم فساداً شديداً، إذ كان الوزراء يرتشون ومثلهم الولاة على الأقاليم وكبار الكتاب، بل إنهم جميعاً كانوا يختلسون أموال الخراج والضرائب وما كان يصير إلى الدولة من البلدان المختلفة، وقد بدأ هذا الوباء بأخرة من العصر العباسي الأول في زمن الواثق إذ صادر في فسنة ٢٢٩ للهجرة كتاب الدواوين واستخلص منهم نحو مليوني دينار[٥]، وكلما تقدمنا في العصر العباسي الثاني اتسع الخرق ولم يعد من الممكن رتقه، ولذلك مظهر واضح هو كثرة المصادرات لأموال الوزراء والكتاب، إذ نرى المتوكل يصادر أموال ابن الزيات وزير آبائه، ويصادر أمواله كاتبه عمر بن الفرج الرخجي، ويقال إنه أخذ من أمواله ما قيمته مائة وعشرون ألف دينار وأخذ من أخيه نحو مائة وخمسين ألفًا[٦]، ونكب كاتباً ثانياً استوزره مدة قليلة يسمى أبا الوزير واستخلص منه مائتي ألف دينار[٧]، ونكب كاتباً ثالثاً من

---

(١) معجم البلدان فس سامراء والطبري ٢١٢/٩ ومروج الذهب ٤٠/٤ والنجوز الزاهرة ٣٢٠/٢.

(٢) مروج الذهب ١٤٧/٤.

(٣) مروج الذهب ١٤٥/٤.

(٤) النجوم الزاهرة ٢٣٤/٣.

(٥) طبري ١٢٥/٩.

(٦) طبري ١٥٨/٩ ومروج الذهب ١٩/٤.

(٧) الفخري ص ١٧٧.

كتاب التوقيع يسمى نجاح بن سلمة وأخذ منه ومن ابنه مائة وأربعين ألف دينار[١]، ونكب القاضي أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد واستخلص منه مائة وستين ألف دينار[٢]، ونكب يحيى بن أكثم قاضي قضاته واستخلص منه خمسين وسبعين ألف دينار[٣]. وأثرى قواد الترك في السنوات التي تلته ثراء فاحشاً وأثرى كثير من الوزراء. ونرى المعتمد يصادر أموال وزيره إسماعيل بن بلبل ويسفك دمه كما يصادر أموال وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ويستخلص منهما تسعمائة ألف دينار[٤].

ومعنى ذلك أن الوزراء ومثلهم الكتاب والولاء كانوا يختلسون أموال الدولة والأمة، ويخيل إلى الإنسان أنه لم يعد هناك موظف كبير في الدولة لا يقترف هذه الجريمة النكراء. وكان الولاة يرشون الوزراء ليظلوا في ولاياتهم، وبلغت الرشوة أحياناً مائتي ألف دينار غير ما يرافقها من التحف والهدايا[٥]، وحتى رجال الحسبة كانوا يرتشون ويختلسون الأموال، في أثناء مراقبتهم للتجار وحركة البيع والشراء في الأسواق على نحو ما يروى عن أحمد بن الطيب بن مروان السرخسي الفيلسوف، إذ خان الأمانة في ولايته الحسبة ببغداد، وكان جملة ما أخذه مائة وخمسين ألف دينار[٦]. ولا نبالغ غذا قلنا إنه كان يتورط في هذا الاختلاس وما يطوي فيه من الرشوة أكثر منظفي الدولة، وخاصة من كانوا منهم يقومون على جباية الضرائب وأموال الخراج، وكثيراً ما كانوا يعذبون أصحاب الضياع والأعيان وذوي الوجاهة بالضرب والسحب على الوجوه والرسف في القيود وصب الزيت على رءوسهم أو النفط وتعليقهم في الجدر من أيديهم وأرجلهم، حتى يستخرجوا منهم كل ما يريدون من أموال، ويصور ذلك ابن المعتز في أرجوزته[٧] التي أرخ فيها خلافة المعتضد وأعماله الجليلة مبيناً كيف كانت تحبي أموال الخراج قبله في قسوة بل في عنف بل في أهوال من التعذيب والتنكيل، يقول:

فكم وكم من رجل نبيل ذي هيبة ومركب جليل
رأيته يعتل بالأعوان إلى الحبوس وإلى الديوان
وجعلوا في يده حبالا من قنب يقطع الأوصالا

---

(١) طبري ٩/٢١٥.
(٢) مروج الذهب ٤/١٤.
(٣) طبري ٩/١٩٧.
(٤) النجوم الزاهرة ٣/٤٠.
(٥) الفخري ص١٧٨.
(٦) مروج الذهب ٤/١٧٠.
(٧) أنظر الديوان (طبع ة دار صادر بيروت) ص ٤٨١.

وعلقوه في عري الجدار كأنه برادة في الدار

وصفقوا قفاه صفق الطبل نصباً بعين شامت وخل

وصب سجان عليه الزيتا فصار بعد بزة كميتا

ويمضي ابن المعتز فيذكر أنهم ما يزالون يعذبون المرء بصنوف العذاب حتى لا تبقى فيه قدرة على المقاومة، فيتوسل إليهم أن يعرضوه على التجار كي يقرضوه بعض أموالهم، أو حتى يبيعهم بعض عقاره، وأن يؤجلوه لذلك خمسة أيام. وبعد لأي يجعلونها أربعة، ويأتيه أصحاب الربا الفجرة، فيقرضونه واحداً بعشرة، ويكتبون عليه صكاً بأنه باع ضيعته، وينزل على إرادتهم، حتى يخلص من هذا التعذيب الذي لا يطاق بدفع ما يريده أرباب الخراج. ويقول ابن المعتز إن المعتضد أزال هذا التعذيب وقمع هذا الظلم الصارخ، ولكنه كان قمعاً إلى أجل محدود، إن كان حقاً قمعه أو استطاع قمعه. ويصور لنا ابن المعتز كيف كان هؤلاء الجباة يبتزون أموال التجار أصحاب الجواهر والأموال العريضة، وخاصة من كانت له معاملات منهم مع الدولة، فقد كانوا يدعون عليه أن لسلطان عنده ودائع يجب أن يردها، وكانوا لا يزالون يتفننون في تعذيبه:

حتى إذا مل الحياة وضجر وقال ليت المال جمعا في سقر

أعطاهم ما طلبوا فأطلقا يستعمل المشي ويمشي العنقا

والعنق مشية سريعة. وكأنه يخشى أن يردوه إلى التعذيب، فهو يطير طيراناً. وويل لمن كان يرث عن أبيه ميراثاً ضخماً، فقد كانوا يحاولون الاستيلاء على ميراثه بطرق شتى، إذ يسجنونه، ويطلبون إليه أن يثبت أنه ابن المتوفى، وما يزالون يضربونه ويلكمونه ويصفعونه، يقول ابن المعتز:

وأسرفوا في لكمه ودفعه وانطلقت أكفهم في صفعه

ولم يزل في أضيق الحبوس حتى رمى إليهم بالكيس

وكأننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق. وما إن يجثم عصر المقتدر على صدر الأمة حتى يفسد الحكم فساداً لا حد له، وقد استوزر اثني عشر وزيراً منهم من وزر له المرتين والثلاث، أولهم ابن الفرات، ويروي أنه حاسب كتاب العطاء فوجد لهم خيانة بلغت نحو مائة ألف دينار[١]، ويم يلبث المقتدر أن صادره في سنة ٢٩٩ واستولى على أمواله وإقطاعاته، فاجتمع له نحو سبعة ملايين من

---

[١] صلة تاريخ الطبري لعريب ص٢٥.

الدنانير[١]، ومع الشك في أمانته على هذا النحو نراه يعود إلى الوزارة حتى إذا توفى في سنة ٣١٢ وجد له من الدنانير ما يزيد على عشرة ملايين[٢]. وولى الوزارة بعد إقالته الأولى منها الخاقاني، وكان سيئ السيرة، فأخذ يبيع الولايات غير مراع للأمة عهداً ولا ذمة، ويقال إنه ولي على الكوفة في يوم واحد تسعة عشر والياً آخذاً من كل واحد منهم رشوة حسبما تيسر، وفيه يقول بعض معاصريه[٣]:

وزير لا يمل من الرقاعة ... يولى ثم يعزل بعد ساعة

إذا أهل الرشا صاروا إليه ... فأحظى القوم أوفرهم بضاعه

ونعجب أن تدر إقطاعات الوزير في عهد المقتدر مائة وسبعين ألف دينار سنوياً[٤]، ولا يكفيه هذا الراتب الضخم ويختلس ويسرق أموال الدولة والأمة حتى يصبح من ذوي الملايين. وبذلك نفهم كيف كان بعض الوزراء حينئذ يبذل في سبيل حصوله على الوزارة خمسمائة[٥] ألف دينار، مؤملا أن يستردها في أسرع وقت. ويروي أن حامد بن العباس حين وزر للمقتدر أهداه بستاناً أنفق عليه مائة ألف دينار وفرشه باللبود الخراسانية[٦]. واستوزر المقتدر بعده ابن الفرات ثانية، فاستخلص منه مليوناً وثلثمائة ألف، ويقال إنه كان ينفق على موائده يومياً مائتي دينار[٧]، في حين كان المستكفي ينفق بأخرة من العصر على مائدته كل يوم خمسين ألف درهم[٨]. وكان الولاة يستتون سنة الوزراء في نهب الأموال واختلاسها[٩].

وبهذه الصورة كانت أموال الدولة تختلس وتنهب، ينهبها ويختلسها الولاة والكتاب والوزراء، ينعمون ويترفون، والشعب يتمرغ في البؤس والحرمان والشقاء، وكأنما تعطلت أداة الحكم، بل لقد فسد فساداً لا يقف عند حد. وكان مما زاد في هذا الفساد غلبة النساء على الحكم، فكن كثيراً ما يصرفنه بحسب أهوائهن، وكن يقتنين الجواهر الباهظة الأثمان والضياع والعقارات والأموال الطائلة، حتى يقال إن المستعين مات وفي خزائن الدولة نحو نصف مليون دينار، على حين كان

---

[١] عريب ص٢٦.

[٢] النجوم الزاهرة ٢١٢/٣.

[٣] الفخري ص ١٩٨ وعريب ص ٢٩ – ٣٠.

[٤] الهمداني ص ٥١.

[٥] الفخري ص ٢٠٢.

[٦] الهمداني ص ٢٢.

[٧] الهمداني ص ٣٦.

[٨] الهمداني ص ١٤٨ .

[٩] النجوم الزاهرة ١٨٣/٣ وعريب ص ٣١ والهمداني ص ١٣

في خزائن أمه مليون دينار كاملة[١]، وكانت أم المعتز أكثر منها جشعاً، ويقال إن قواد الترك طلبوا من ابنها قبل قتله خمسين ألف دينار، فلم يجدها في خزائن الدولة، ففزع إليها يطلب منها أن تقرضه هذا المبلغ، حتى يفدي نفسه به من القتل، فأنكرت أن يكون عندها مال، وخلع ابنها وقتل بعد أيام، وصادر أموالها حاجبه صالح بن وصيف، وملأه العجب حين وجد في خزانة لها مليوناً من الدنانير، غير جواهر قدرت قيمتها بمليوني دينار. ولما رأى وصيف ذلك قال: قبحها الله، عرضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار يدفعها رواتب للجيش، وعندها هذا كله في خزانة واحدة من خزائنها[٢]. وثالثة الدواهي الطامة شغب أم المقتدر، وهي أم ولد رومية، كانت تمسك بيديها زمام الأمر والنهي في الدولة، وكانت تستعين بقهر مانتها "ثمل" وأقعدتها في الرصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم، فكانت تكتب بأحكامها على رفاع الناس بحضرة الفقهاء والقضاة[٣]، وأثرت "شغب" حتى كان دخلها في العام من غلات ضياعها مليون دينار[٤]، ويقال إنها غضبت على إحدى وصيفاتها، فاستخلصت ثمل منها مليوناً من الدنانير[٥]، كأن مليون دينار في أيدي نساء القصر وجواريه شيء عادي تتملكه أي وصيفة. وكان المقتدر متلافاً فأنفق أموال الدولة على النساء وأهداهن جواهرها وتحفها النفيسة، من ذلك إهداؤه الدرة اليتيمة – التي ظل آباؤه يحتفظون بها حقباً طوالاً – لبعض حظاياه، وكانت زنتها ثلاثة مثاقيل. وأهدى حظية ثانية سبحة جوهر لم ير مثلها، قيمتها ثلثمائة ألف دينار، وأهدي حظية ثالثة فص ياقوت اشتراه الرشيد لثلثمائة ألف دينار، ويقال إنه أنفق على ختان أبنائه ستمائة ألف دينار[٦] وكأن كل ذلك وقع في يد معتوه، فهو ينثره يميناً وشمالاً. واستولى قواد الترك لعهده على كثير من الإقطاعات والضياع، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقي المتوفى سنة ٣١١ كانت تغل له سنوياً ثلاثين ألف دينار[٧]. وكانت قهرمانة شريرة هي علم الشيرازية تستولى على كل أمور الدولة لعهد المستكفي[٨].

وعلى هذا النحو لم يعد الخلفاء يحكمون منذ عهد المقتدر المشئوم، فقد أصبح الترك والنساء والجند هم الذين يصرفون أمور الدولة، وعم الفساد وانتشرت الدسائس والمؤامرات، وفسدت أداة

---

(١) طبري ٢٨٤/٩.

(٢) طبري ٣٩٥/٩ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣.

(٣) عريب ص ٥٠ والنجوم الزاهرة ١٩٣/٣.

(٤) النجوم الزاهرة ٢٩٣/٣.

(٥) الهمداني ص ٣١.

٦ الهمداني ص ٦٥ والفخري ص ١٩٢ والنجوم الزاهرة ٢٣٤/٣.

(٧) عريب ص ٨٠

(٨) الهمداني ص ١٤٣.

obeikandi.com

الحكم فساداً شديداً، حتى لنجد أبا جعفر بن شيرزاد حاكم بغداد نيابة عن توزون لعهد الخليفة المتقي يؤمن لصاً فاتكاً هو حمدي، ويشترط عليه أن يدفع له شهرياً خمسة عشر ألف دينار، في حين يكبس هو بيوت الناس بالمشاعل والشموع وينهب منها ما يريد من الأموال والجواهر. ويستظهر ابن تغري بردي أن هذا اللص هو الذي سمي عند العامة في سالف الأعصار أحمد الدنف، وقصته في ألف ليلة وليلة مشهورة[١].

وهيأ ذلك منذ أوائل العصر لا إلى نهب الأموال والجواهر فحسب، بل إلى نهب الأقاليم والولايات، فإذا أسرة طاهر بن الحسين قائد المأمون تقيم لنفسها في خراسان إمارة تظل بها حتى سنة ٢٥٩ غير أن صلتهم بالدولة ظلت حسنة وظلوا يرسلون لها الضرائب،وكان منهم نفر يتولون شرطة بغداد حتى بعد انتهاء حكمهم لخراسان وما وراء النهر. وفي سنة ٢٤٧ للهجرة استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يقيم الإمارة الصفارية في إقليم بلوخستان شرقي إيران، ومد حدودها حتى شملت كرمان إلى الجنوب من إيران كما شملت أفغانستان والسند، واستولى على ما بيد محمد بن طاهر آخر الحكام الطاهريين في خراسان. وتوفي يعقوب لسنة ٢٦٥ فخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٧ إذ قضى عليه السامانيون حكام ما وراء النهر. وحدث في سنة ٢٥٥ أن أهدى المعتز بايكباك حاجبه مصر فولى عليها أحمد بن طولون فاستقل بها ومد حكمه إلى الشمام، وخلفه على الإقليمين ابنه خمارويه، وزواج ابنته بوران من المعتضد مشهور. وظلت تلك الإمارة الطولونية في أبناء أحمد بن طولون وأحفاده حتى سنة ٢٩٢ إذ عادت في عهد المكتفي إلى حظير الدولة، فولي عليها عيسى النوشري، وتبعه ولاة مختلفون إلى أن وليها محمد ابن طغج الإخشيد ولايته الثانية سنة ٣٢٣ فأسس بها الإمارة الإخشيدية التي ظلت تلي شئون مصر حتى تسلمها منها المعز الفاطمي سنة ٣٥٨. وإمارة السامانيين في خراسان وما وراء النهر أطول هذه الإمارات عمراً، فقد بدأت حوالي سنة ٢٦١ وظلت إلى ما بعد هذا العصر حتى سنة ٣٨٩ وكانت العلاقة بينها وبين الخلافة العباسية حسنة، فكان أمراؤها يتولونها بعهود من الخلفاء حتى تكون ولايتهم شرعية، وأذن لهم الخلفاء في أن تذكر أسماؤهم معهم في خطبة الجمعة وأن يضربوا أسماءهم على الدنانير، وكانوا سنيين، ودعم ذلك الصلة بينهم وبين الخلافة.

ولا نصل إلى أواخر العصر، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم، فتصبح فارس والري وأصبهان والجل في أيدي بني بويه، وخراسان في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم، وكرمان في يد محمد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر في أيدي بني حمدان، والأهواز وواسط والبصرة في يد البريدي، واليمامة والبحرين في يد أبي طاهر الجنابي القرمطي، ومصر والشام في يد محمد بن طغج الإخشيد، والمغرب وإفريقية في يد القائم

---

[١] النجوم الزاهرة ٣/٢٨١.

بأمر الله ابن المهدي الفاطمي المتلقب بأمير المؤمنين، والأندلس في يد عبد الرحمن الناصر الأموي. ولم يبق في يد الخليفة سوى بغداد، واستولى عليها منه – كما أسلفنا – البويهيون وخلعوه، وولوا المطيع لله، وأصبحوا هم الذين يولون الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمي وأن يدعى له على المنابر، وخفضت نفقاته، وقررت له نفقة طفيفة.

وليست هذه الكوارث كل ما حاق بالخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، فقد نشبت ثورات كثيرة استنزفت موارد الدولة، وخاصة ثورتي الزوج والقرامطة، أما الزنج فقد استطاع الموفق لعهد أخيه المعتمد أن يقضي بعد جهاد عنيف عليهم وعلى ثورتهم قضاء مبرماً، وأما القرامطة فقد ظلوا حتى نهاية العصر ينازلون الدولة وينزلون بها خسائر فادحة في الرجال والأموال، ولعل من الخير أن نخص كلا من الثورتين بكلمة موجزة.

obeikandl.com

٣

ثورة الزنج

شغلت هذه الثورة الدولة أربع عشرة سنة ونحو أربعة أشهر لم تضع فيها الحرب أوزارها منذ رمضان سنة ٢٥٥ للهجرة حتى صفر سنة ٢٧٠ وكان الذي أعد لها وأشعلها رجل فارسي من ورزنين: قرية من قرى الري بإيران، زعم في أول الأمر أنه من بني عبد القيس سكان البحرين، وفيهم أخذ ينشر آراءه الثورية ضد الدولة لأوائل العقد السادس من القرن الثالث الهجري، فتبعه نفر قليل. وأحس كأن البحرين لن تتبعه، فتركها إلى البصرة لسنة ٢٥٤ وأخذ ينشر فيها آراءه، وارتفع أمره إلى الوالي فطلبه، غير أنه أسرع بالخروج منها إلى بغداد، حتى إذا استدار العام عادة بفكرة جديدة هي أن يثير الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ هناك، وكان يسخرهم كبار الملاك الإقطاعيين في هذا الكسح وفي زرع أرضهم لقاء أجر زهيد لا يسد ما يحتاجون إليه من الغذاء البسيط والكساء الخشن. ومشى يثيرهم ويتجمعون إليه، ورأى إحكاماً لدعوته أن يسبغ عليها صبغة دينية، فزعم أنه يوحي إليه وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذ الزنج من جور الملاك الظالمين، وأشاع أن اسمه على بن محمد ووصل نسبة بإمام الزيدية: زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، حتى يثبت حقه الشرعي في الثورة ضد الخلافة العباسية[١]، وهو نسب مكذوب إذ هو فارسي كما قدمنا، وحقاً نجد ابن المعتز ينعته في الأرجوزة التي تمثلنا ببعض أبياتها فيما أسلفنا بأنه علوي إذ يقول عنه:

والعلوى قائد الفساق وبائع الأحرار في الأسواق

ونؤمن بن ابن المعتز تعمد ذلك حتى يلطخ العلويين خصوم أسرته بعار هذا الرجل الذي لم يكن يرعى في الأمة إلا ولا ذمة على نحو ما سيتضح عما قليل. وكان لا يزال يردد بأن العباسيين انغمسوا في إثم الخمر والمجون والمعاصي،وأنه تجب حربهم حتى يتخلص الناس من شرورهم، وحتى يرد الأمر إلى نصابه وإلى مستحقيه العلويين من أمثاله المنتسبين إليهم زواراً وبهتاناً.

وكان الزنج يبلغون ألوفاً، وكلهم ويعملون في كسح السباخ والزراعة، وكانوا يجلبون من شرقي إفريقيا، وسرعان ما التفوا حول هذا الثأر والتف معهم كثير من عبيد الفرات بحيث غدت الثورة كأنها ثورة العبيد على السادة الجائرين، وثبت ذلك في نفوسهم أن صاحبهم كان يدعو إلى

---

(١) طبري ٤١٠/٩ ومروج الذهب ١٠٨/٤ والفخري ص ١٨٦ والنجوم الزاهرة ٢١/٣ ودراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدوري (طبع بغداد) ص٧٩.

تحريرهم، وهي دعوة كريمة، غير أنه لم يمض فيها إلى النهاية، إذ استباح في حروبه استرقاق الأحرار، مما يؤكد أنه لم يكن يفكر جدياً في إلغاء الرق. ويدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن محرراً للعبيد حقاً ولا كان علوياً ما رواه المسعودي عنه من أنه "كان ينادي في عسكره على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس بن عبد المطلب وغيرهم من ولد هاشم وقريش ومن سائر العرب وأبناء الناس، فتباع الجارية بالدرهمين والثلاثة، وينادي عليها بنسبها: هذه ابنة فلان، ولكن زنجي منهن العشرة والعشرون والثلاثون .. واستغاثت به امرأة هاشمية من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج، وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه، فقال لها: هو مولاك وأولى بك من غيره"[١]. ولو كان علويا ما استباح استرقاق العلويات، ولو كان ثائراً على الرق داعياً إلى تحرير العبيد بإخلاص ما أسقط العبودية عن الزنوج وردها على الأحرار، بل كان يبقى لهم حريتهم. ويبدو أنه لم تدر بذهنه خطة واضحة لنمط من أنماط الاشتراكية يصحح به معيشة الناس عبيداً وأحراراً ويصلح به أوضاعهم المالية والاقتصادية. ولذلك حول ثورته سريعاً من ثورة ضد الملاك الإقطاعيين إلى ثورة ضد الدولة، فالدولة يجب أن تقاوم ويقاوم معها الخلفاء وولاتهم. ويذهب بعض المؤرخين إلى أنه كان يعتنق آراء الأزارقة من الخوارج إذ كان يستحل مثلهم قتل نساء المسلمين وأطفالهم، وكان يرى رأيهم في أن المسلمين جميعاً كافرون وينبغي قتالهم واستئصالهم حتى لا تبقى منهم باقية، ويحاول المسعودي أن يبرهن على أنه كان يؤمن بمبادئ الخوارج بشواهد مختلفة، منها أنه كان يبدأ خطبه بعبارة الخوارج المشهورة التي رددوها حين ثاروا في وجه على بن أبي طالب: "ألا لا حكم إلا الله"، وأنه كان يردد أن الذنوب تفضي إلى الشرك على نحو ما كان يقول الخوارج من قديم بأن مرتكب الكبيرة كافر، وأنه هو وأصحابه كانوا إذا خطبوا على المنابر ترحموا – مثل الخوارج الأولين – على أبي بكر وعمر ولم يذكروا عثمان وعلياً غضباً عليهما ولعنوا جبابرة الأمويين والعباسيين[٢]. وعلى نحو ما اعتزل الخوارج الأولون على بن أبي طالب إلى حر وراء بقرب الكوفة مهاجرين عن الجماعة الضالة، كما هاجر الرسول عليه السلام عن أهل مكة إلى المدينة، كذلك هاجر صاحب الزنج بأتباعه إلى سبخة بمآخير أنهار البصرة تسمى سبخة أبي قرة، فأقام فيها، وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ بها، وبث الزنج والسود يغير بهم على القرى وينهب الأموال والدواب[٣]، ثم تحول إلى الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب واتخذ عليه مدينة[١] سماها "المختارة" بني له فيها دوراً حصينة، وأمر أصحابه بالبناء فيها.

---

[١] مروج الذهب ٤/١٢٠.

[٢] أنظر مروج الذهب ٤/١٠٨ ، ١١٩ . وراجع النجوم الزاهرة ٣/٤٨.

[٣] طبري ٩/٤٣٧.

وكثرت إغاراته على البصرة وقراها، فاستغاث أهلها بالخليفة المهتدى، فأرسل إليهم في سنة ٢٥٦ جيشاً أكثره من الفرسان فلم يستطع الوصول إلى مدينة صاحب الزنج لكثرة ما كان يقوم دونها من القنوات والنخيل والأدغال. ويشعر صاحب الزنج بقوته، فيقتحم مدينة الأبلة مما يلي نهر دجلة ويقتل بها خلقاً كثيراً، ويشعل بها ناراً تأتي على كثير من منازلها، إذ كانت مبنية من خشب الساج، ويعمل فيها النهب والسلب. ويهاجم بعدها مدينة عبادان، وكان أهلها قد سمعوا ما صنعه بمدينة الأبلة، فألقوا له عن يد، وانضم إليه من كان بها من العبيد، ونهب كل ما كان بها من السلاح والمئونة. وولي وجهه نحو مدينة الأهواز فدخلها بعد مناوشات قليلة، واستولى على كل ما كان بها من الأسلاب والأمتعة[٢].

وتولى المعتمد الخلافة، فأرسل إليه في سنة ٢٥٧ هـ جيشاً كثيفاً انتصر على بعض كتائبه، غير أن الزنج استتروا منه بالقنوات والأدغال، فاضطر إلى الانسحاب، ونازلهم منصور بن جعفر بجيش ثان لم يصنع شيئاً[٣]. وما يلبث صاحبهم أن يهاجم البصرة. وكان يردد على مسامع أصحابه أنه اجتهد في الدعاء عليها أن يصيبها الخراب من جميع جوانبها. وانضم إليه حينئذ كثير من الأعراب، هاجمها بهم وبأتباعه من الزنج والعبيد في أثناء صلاة أهلها إحدى الجمعات، وقد انقض عليها من ثلاث جهات، معملاً فيها النهب والسلب والقتل وإشعال النار[٤]، وتقول أقل الروايات مبالغة إن عدد القتلى بلغ ثلثمائة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل وأنه أحرق المسجد الجامع وأحال البلدة أنقاضاً، يقول المسعودي: "واختفى الناس ذعراً في الدور والآبار، وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها، وكذلك الفئران والسنانير، وافنوها حتى لم يقدروا منها على شيء، وكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه، وعدموا مع ذلك الماء العذب"[٥] وتسامع الناس والشعراء في بغداد وسامراء بهذه النكبة المروعة التي حلت بالبصرة، فبكوها بدموع غزار، وفي مقدمتهم ابن الرومي، وقصيدته:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام

ندب حار لها وتفجع وتوجع لما نزل بها من تلك الكارثة التي لا تكاد تتخيلها الأوهام، وقد مضى يصور قتلى الزنج وصرعاهم وانتهاكهم الحرمات وسبيهم الحرائر المصونات ممزقات الثياب داميات الوجوه، وكيف أشعلوا النيران فيها وحولوا قصورها تلالاً ورماداً، وكيف ملئوا

---

(١) طبري ٩/٤٧٠.

(٢) أنظر الطبري ٩/٤٧٠ وما بعدها.

(٣) طبري ٩/٤٧٨.

(٤) طبري ٩/٤٨١.

(٥) مروج الذهب ٤/١١٩.

شوارعها بالرءوس والجثث والأيدي والأرجل المبتورة. وهو في تضاعيف ذلك يستصرخ الأمة لنجدة البصرة والذياد عن الحرمات والفتك بالزنج الذين ارتكبوا آثاماً يشيب لها الوالدان فتكاً لا يبقى ولا يذر.

وكأنما استجابت الدولة لصرخة ابن الرومي، فجهزت جيشاً ضخماً بقيادة الموفق أخي الخليفة المعتمد، وكان بطلاً لا يباري وصاحب رأي وحزم لا يدانيه حزم وتدبير لا يشبهه تدبير، غير أن الزنج وصاحبهم استتروا منه بالقنوات وبالأدغال الملتفة والنخيل الكثيف. فندب إليهم منصور بن جعفر بن دينار فاستباحوا عسكره وقتلوه. فتقدم الموفق إلى نهير يسمى نهيل معقل، ونازل الزنج وهزمهم مراراً وأسر قائداً من قوادهم هو يحيى البحراني وأرسل به إلى سامراء حيث ذبح وأحرق[١]. وعاد الموفق إلى سامراء، وخلف على قتال الزنج موسى بن بغا، ونشبت حروب متتابعة قتل فيها كثير من الجانبين[٢]. ويولى المعتمد في سنة ٢٦١ على الأهواز قائداً من قواده يسمى أبا الساج، وينازل الزنج وترجح كفتهم، ويدخلون الأهواز وينهبونها ويحرقون دورها[٣].

وتشغل الدولة وقائدها الموفق بيعقوب بن الليث الصفار، وكان قد استولى على سجستان وكرمان وفارس وقضى على الطاهريين واستولى منهم على خراسان، وأقبل بمجموعه في سنة ٢٦٢ يريد الاستيلاء على بغداد، ولم يكد يلم بدير العاقول على بعد أثنى عشر ميلا منها حتى تصدى له الموافق وهزمه هزيمة ساحقة، فر على أثرها إلى الأهواز، وغلى ذلك يشير ابن المعتز في أرجوزته آنفة الذكر إذ يقول عن الموفق:

وحارب الصفار بعد الزنج ... فطار إلا أنه في سرج

وفر من قدامه فرارا ... وكان قدماً بطلاً كرارا

وظل الموفق مشغولا به بعد هزيمته إلى أن توفى سنة ٢٦٥. وفي هذه الأثناء وجد صاحب الزنج الفرصة سانحة له، فكان يغير على بعض المدن، يفتك بأهلها وينهبها من مثل الأهواز وواسط ودست ميسان. وكانت أنباؤه لا تزال تصل إلى الموفق، فصمم على منازلته ثانياً، وجهز لحربه جيشاً جراراً تسنده سفن حربية، وأسند قيادته إلى ابنه أبي العباس. (الذي ولي الخلافة بعد عمه المعتمد وتلقب بالمعتضد) وكان شجاعاً حازماً من أهل الرأي الصائب مثل أبيه. فخف إليه في ربيع الآخر لسنة ٢٦٧ فواقع قائداً يسمى سليمان بن جامع ومزق جنوده واستولى على ما كان بيده من قرى دجلة[٤]، ودخل مدينة واسط وردها على أهلها، وعسكر بجيشه في جوارها،

---

[١] طبري ٩/٤٩١.

[٢] طبري ٩/٥٠٤.

[٣] طبري ٩/٥١٣.

[٤] طبري ٩/٥٥٧ وما بعدها.

وأخذ يقف بنفسه على القرى والمسالك المؤدية إلى صاحب الزنج ومدينته. وجمع له الزنج وحشدوا واتخذوا سفناً تسمى بالسميريات، لكل منها أربعون مجدافاً والملاحون من فوقها يحملون السيوف والرماح والتروس، ولكن أبا العباس عرف كيف ينزل بهم هزيمة نكراء، استولى في أثنائها على أكثر سميرياتهم[١]، وأخذت هزائمهم تتلاحق. وبلغ الموفق نبأ بأن صاحب الزنج يعد جيشاً كثيفاً لمساعدة قائديه: سليمان بن جامع وعلي بن أبان، فأعد جيشاً ضخماً بدوره لنصرة ابنه، ومضى معه إلى حصن الزنج الشمالي في البطيحة الذي سموه باسم "المدينة المنيعة" وأوقعا بقائد لهم يسمى الشعراني وبجنده وقعة ما حقه. واتخذ الموفق حينئذ خطة سديدة أن يعفو عمن يستسلم له من جند العدو ويضمه إلى جيشه واستسلم له كثيرون[٢]. واتجه إلى حصن الزنج الأوسط الذي سموه مدينة "المنصورة" وكان بجوار "طهيثا" والتقى هناك بسليمان بن جامع وأصحابه، فقتل منهم مقتلة عظيمة، واستولى على المدينة وكل ما بها من الأموال والذخائر والميرة، وفر سليمان على وجهه لا يلوي، وفر كثيرون من الزنج إلى الآجام المحيطة بالمدينة، وأعلن الموفق مرة ثانية أن يعفو عفواً تاماً عن كل من يستسلم راضياً، واستسلم له كثيرون، فكان يخلع عليهم ويضمهم إلى جيشه. وكانت سياسة قويمة إذ أخذ كثيرون من أتباع صاحب الزنج يغادرون معسكره إلى معسكر الموفق[٣]. ومضى إلى الأهواز والقرى التي بينها وبين فارس، وفر عنها سريعاً قائدان من قواد الزنج هما المهلبي وبهبوذ بن عبد الوهاب تاركسين وراءهما عناداً ضخماً من الميرة احتواه الموفق. وكاتبه كثيرون من فرسان هذين القائدين وجنودهما يطلبون الأمان فأمنهم وسلكهم في جيشه، واستأمن قائد اسمه "منتاب" وكثير من المقاتلين في سميريات الزنج وسفنهم[٤]. وتقدم الموفق بمجموعه إلى المدينة "المختارة" حاضرة صاحب الزنج آخر معاقله. ورأى من مناعتها ما جعله يؤمن بأن حصارها سيطول، فبني لجيشه أمامها على الضفة الثانية لدجلة مدينة سماها "الموفقية" شيد فيها جميع المرافق، وساق إليها أصناف المنافع، وشدد في حصار المختارة، حتى غدت كأنها سجن كبير لصاحبها وأتباعه، ونادى بأن الأمان مبسوط للناس أحمرهم وأسودهم، واستسلمت له من الزنج جموع كثيرة، إذ رأوا صاحبهم كالأسير وقد عزته الميرة والمؤن، وفي ذلك يقول ابن الرومي للموفق من قصيدة طويلة[٥]:

حصرت عميد الزنج حتى تخاذلت ... قواه وأودي زاده المتزود

---

[١] طبري ٥٦١/٩.

[٢] طبري ٥٦٦/٩ وما بعدها.

[٣] طبري ٥٧١/٩ وما بعدها.

[٤] طبري ٥٧٥/٩ وما بعدها.

[٥] زهر الآداب للحصري ١٩٤/٣.

فظل ولم تقتله يلفظ نفسه وظل ولم تأسره وهو مقيد

[1]تفرق عنه بالمكايد جنده وتزدادهم جنداً، وجندك محصد()

وما زال الموفق يحاصر المدينة وصاحبها حتى رأى أن يشن عليها حملة حاسمة سنة ٢٦٩ إذ هاجمت سفنه الحربية قصر صاحب الزنج وصمم على الفرار منه، والتقى الموفق في هذا الأثناء بجيش له في غربي نهر أبي الخصيب فمزقه شر ممزق، وطلب الأمان كثيرون من الزنج وقوادهم وفي مقدمتهم الشعراني وشبل[٢] بن سالم وجمع الموفق المستأمنة من الزنوج العارفين بمسالك المدينة "المختارة" ومضايق طرقها وحصونها كي يمحضوه النصيحة في الوصول إلى صاحبها، ودلوه راضين، فاستولى على قصره في صفر لسنة ٢٧٠ بعد موقعة عظيمة، ووافاه البشير بقتله، فخر لله ساجداً على ما أولاه، وأمر بصلب قائديه سليمان بن جامع وعلي[٣] بن أبان المهلبي. وكان الموفق قد جرح جرحاً بليغاً في صدره في أثناء المعارك الأخيرة. ولم يثنه ذلك من الحرب حتى كتب له فيها النصر المبين، ولذلك يقول ابن المعتز في تهنئته بهذا النصر من قصيدة صور فيها بطولته:[٤]

شق الصفوف بسيفه وشفى حزازات الإحن

دامي الجراح كأنها ورد تفتح في غصن

وبذلك انتهت ثورة الزنج، ويقال إنه ذهب ضحيتها نحو مليون ونصف، وأمر الموفق بالنداء في أهل البصرة والأبلة وكور دجلة والأهواز وواسط بقتل صاحب الزنج ورجوع كل مواطن إلى داره وبلده آمناً على نفسه وماله وأهله[٥].

---

(١) محصد: مجتمع محكم .

(٢) طبري ٩/٦٤٣.

(٣) طبري ٩/٦٥٤ وما بعدها.

(٤) ذيل زهر الآداب ص ١٥٧.

(٥) طبري ٩/٦٦٣.

openkanal.com

٤

ثورة القرامطة

مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول أن الشيعة كانوا فرقاً، وظلت هذه الفرق نشطة في العصر العباسي الثاني، وأهمها فرقة الزيدية التي حملت السلاح دائماً في وجوه العباسيين، ثم فرقة الإمامية التي كانت تعيش على التقية وتعمل سراً ضد العباسيين، وقد انقسمت مبكرة إلى أثنى عشرية آمنت بأن الإمامة توالت في أثنى عشر إماماً، أخرهم محمد المهدي المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة، وإلى إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان قد توفى قبل أبيه، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد، لأنها تنتقل حتماً إلى الابن الأكبر، حتى لو مات في عهد أبيه. وأخذت تتكون سريعاً حول محمد الحركة[١] الإسماعيلية، وكان الذي نظمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح، وهو فارسي كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان، وأخذ في سرعة يكون حول محمد بن إسماعيل جمعية سرية تعمل على تقويض الدولة العباسية|، وكأني ستعين على جذب الناس إليه بطرق تتناسب مع كل شخص، فأشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة، وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك. وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص، ودعا كل أعضاء جمعيته إلى الاشتراك في كل ما يكسبون مقيماً بينهم ضرباً من الألفة. وبدأ بدعوته في موطنه بالأهواز، ثم تركها إلى البصرة ومعه رفيقه الحسين الأهوازي، وأحس بمطاردة وإلى البصرة لهما، فهرب مع رفيقه إلى "سلمية" بقرب اللاذقية في الشام، ومن هناك أخذ يرسل دعاته إلى العراق، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثا فيها تعاليم مانوية فارسية وفلسفية يونانية غير بعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية. ودعا في قوة إلى فكرة التأويل في الآيات القرآنية حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة أو قل معانيها الخفية التي ترمز إليها من بعيد. وزعم أن تاريخ الأمة ينقسم إلى حلقات، كل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة، سابعهم هو الإمام الناطق الذي ينسخ بشريعته ما قبله من الشرائع، أما الأئمة الستة قبله فأئمة صامتون. وزعم أيضاً أن أئمة الدعوة قسمان: أئمة حقيقيون مستورون أو مستقرون، وأئمة بجانبهم مستودعون وهم رءوس الدعاة المسمون بالحجج، وبذلك أصبح هو نفسه إماماً مستودعاً، وتبعه على ذلك أبناؤه، ومن هنا جاء الشك في نسب الأسرة الفاطمية الإسماعيلية التي حكمت مصر نحو قرنين من الزمان، فهل كان أئمتها مستقرين أو كانوا مستودعين؟ وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون، وهي سبع مراتب، مرتبة للعامة، ومرتبة لمن فوقهم،

---

[١] انظر في الحركة الإسماعيلية والقرامطة كتاب عبد العزيز الدوي ص ١٢٦ وما بعدها.

ومرتبة لمن مر عليه عام، ومرتبة لمن مر عليه عامان، ومرتبة لمن مر عليه ثلاث أعوام، ومرتبة لمن مر عليه أربعة أعوام ثم المرتبة السابعة، وجعلت المراتب فيما بعد تسعاً.

وما يلبث عبد الله بن ميمون – وقيل بل ابنه أحمد خلفه – أن يرسل الحسين الأهوازي إلى الكوفة وسوادها ليدعو إلى الجمعية، فالتقى في الساد بنبطي يحمل بعض الغلات على أثوار له اسمه حمدان، كان أهل قريته يلقبونه – فيما زعم الطبري – لقباً نبطياً هو قرمط لاحمرار عينيه الدائم[١]، وزعم بروكلمان أن معنى هذا اللقب المعلم السري[٢]. وكأنما وجد الأهوازي في هذا الرجل طلبته، فدعاه إلى مذهبه واستجاب له في حماسة بالغة، وأحس الأهوازي بدنو أجله، فعهد إليه برياسة الدعوة، وجد فيها حتى أصبحت له فرقة كبيرة دعيت جميعها باسم القرامطة نسبة إليه. وكان داهية فأخذ في تنظيم الحركة، وفرض على جميع أتباع أن يدفع كل منهم سنوياً درهماً واحداً، ثم جعله ديناراً تأهباً للانتقال إلى دار الهجرة، وفرض على أهل المرتبة السابعة سبعة دنانير، ولم يلبث أن فرض على كل إنسان من أتباع أن يؤدي إليه خمس ماله، وأخيراً فرض عليهم جميعاً الألفة، وهي الشركة في الأموال، وبذلك هيأ لظهور نظام اشتراكي كامل. ولما اطمأن إلى نجاح دعوته أخذ يحل لأتباعه ترك الفرائض الدينية وأن يتخذوا بيت المقدس قبلتهم ويحجوا إليه، وزعم لهم أن الصوم يومان في السنة: يوم عيد المهرجان ويوم عيد النيروز وأن النبيذ حرام والخمر حلال، ووضع قانوناً هو أن كل من حاربه وجب قتله، ومن لم يحاربه وخالفه يجب أخذ الجزية منه[٣]. وفي سنة ٢٧٧ اتخذ لأتباعه دار هجرة بقرب الكوفة سماها "مهما باد" نزلها كثيرون من الرجال والنساء. وكان أكبر معاونيه في حركته صهره عبدان، ويذكر له كتاب صور فيه طريق التابع ومراتبه السبع آنفة الذكر التي تنتهي به إلى الخضوع المطلق للإمام الخفي أو المستتر وممثليه من الأئمة المستودعين.

وأقبل على الانضمام إلى الدعوة كثير من الفلاحين في سواد الكوفة والبصرة لما وعدتهم به من تغيير ظروفهم الاقتصادية السيئة، إذ كان الملاك الإقطاعيون يسومونهم سوء العذاب مع التقتير الشديد في الأجور، وانضم إليها أيضاً كثير من الطبقة الكادحة في المدن ممن كانوا يعيشون في بؤس مدقع، وقد وعدهم جميعاً حمدان وأتباعه بأنهم سينقولنهم من الشقاء إلى السعادة ومن الفقر وذله إلى الغنى وعزه. غير أنهم لم يقفوا جميعاً بدعوتهم عند إنشاء مجتمع اشتراكي، إذ مضوا يدعون غلى التحلل من الدين الحنيف وفروضه حتى ليقول البغدادي إنهم أنكروا البعث والحساب والجنة والنار، وقالوا: هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها وهل النار وعذابها

---

(١) طبري ١٠/٢٦.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (الطبعة العربية) ص ٢٢٩.

(٣) طبري ١٠/٢٥ وما بعدها.

إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج والجهاد[١]، وزعموا: "أن الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى محمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة، فخدعوهم بنيرنجات واستبعدوهم بشرائعهم"[٢]. ومضى حمدان يتخذ لهم أعلاماً بيضاء دلالة على أن دينهم دين النور، ويقال إنه كان يكتب عليها: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين).

وقد أرسل مبكراً دعاة إلى اليمن جاهروا فيها بدعوته وأحدثوا شغباً كثيراً، ونزل "كلواذي" وأخذ يدير منها دعوته، ومن أهم دعاته الذين اتخذهم حينئذ أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، وجنابه من قرى بحر فارس، وقد أرسل به غلى جنوبي إيران، واستطاع أن ينشر هناك الدعوة، والتف حول كثيرون اتخذ من نفسه مشرفاً على إدارة أموالهم. غير أن ولاة العباسيين تنبهوا لحركته هناك وصادروا ما جمع من أموال، ففر على وجهه إلى حمدان، يبلغه الخبر، فأمره أن يتجه إلى منطقة أخرى، واختار له الأحساء في منطقة البحرين، وهناك استجابت له قبيلة عبد القيس وعشائرها البدوية، واستطاع لسنة ٢٨٦ أن ينشئ في تلك الأصقاع النائية دولة اشتراكية جعل عاصمتها "المؤمنية" بدلاً من "هجر" العاصمة القديمة وهي المسماة اليوم باسم "الهفوف" "وفي السنة نفسها أغار على "القطيف" القريبة من البصرة وقتل من لقيه بها من الرجال والنساء[٣]. وفي السنة التالية هددت جنود البصرة[٤]. وأحس حمدان بقوته فأخذ يدفع أتباعه إلى الإغارة على قرى السواد، وتصدى لهم بدر غلام الطائي، وأوقع بهم على غرة بنواحي روذميستان وقتل منهم مقتلة عظيمة[٥]. ويعودون إلى الانتشار في سواد الكوفة لسنة ٢٨٩ ويفتك بهم شبل غلام الطائي ويقع في أسره قائدهم المعروف بابن أبي قوس[٦]، فيرسل به إلى المعتضد، فيضرب عنقه، ويصلبه على الجسر في جماعة من القرامطة، ويذكر ذلك ابن المعتز في أرجوزته آنفة الذكر، منددا بالدعوة القرمطية، قائلاً:

ابن أبي قوس لهم بني ... إمام عدل لهم مرضي

خفف عنهم من صلاة الفرض ... وقال: ناب بعضها عن بعض

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد ص ٢٩٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٢.

(٣) طبري ٧١/١٠.

(٤) طبري ٧٥/١٠.

(٥) طبري ٨٢/١٠.

(٦) في الطبري: فوارس .

فاذهب إلي الجسر تجده فارسا — علي طمر [١] لأسير جالسا

وتلك عقبي الغي والضلال — والكفر بالرحمن ذي الجلال

وهو يسجل هنا على القرامطة جهلهم حتى ليزعمون أن ابن أبي قوس نبي، مع تخفيفهم للصلاة وكفرهم بالرحمن، وسجل عليهم في الأرجوزة قبل هذه الأبيات الشريعة الجديدة التي اتخذوها وأنهم يجاهدون فيها عن إمام مختف لا يظهر أبداً.

ومنذ هذا التاريخ الذي قتل فيه ابن أبي قوس يختفي من العراق وسواده اسم حمدان وصهره عبدان، ونفاجأ بداعية يتولى زعامة القرامطة مكانهما يسمى زكرويه[٢]. ويبدو أنهما أحسا بتغير في المبادئ التي[٣] كانا يدعوان إليها، فأرسل حمدان بعبدان إلى سلمية ليقف على حقائق الأمور، فوجد أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح توفى وخلفه ابنه الحسين، ولما اجتمع به سأله عن الإمام الذي يدعون إليه وعن حجته، فعجب الحسين من سؤاله، وقال له: "من هو الإمام إذن؟" فأجابه عبدان إنه محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الذي دعا له أبوك وكان حجته، فاستنكر الحسين القداحي إجابته، وقال له: إن الإمام إنما كان والده، وحل هو محله الآن. وعندئذ أدرك عبدان حقيقة القداحين وأنهم تظاهروا بالدعوة لمحمد بن اسماعيل خداعاً للناس تمويهاً عليهم حتى يجتذبوهم إلى صفوفهم. وعاد عبدان إلى حمدان فوقفه على حقيقة الأمر، وأشار عليه بوقف الدعوة وأن يجمع الدعاة ويبين لهم الحقيقة. وأخذ حمدان برأيه، فوقف الدعوة في الأماكن القريبة منه، ولم يستطع توضيحها لمن كانوا في الأماكن النائية، وترك كلواذي واختفى هو وصهره عبدان من مسرح التاريخ، ويبدو أن القداحين عملوا على اغتيالهما، واتخذ زكرويه أداة لتنفيذ هذا الاغتيال.

وعلى هذا النحو صارت رياسة الدعوة في سواد الكوفة والعراق إلى زكرويه الدنداني، وكان أعظم نشاطاً من حمدان قرمط وصهره عبدان، ولما رأى الدولة تتعقب القرامطة بسواد الكوفة وأنه لا غناء عندهم سعى في استغواء البدو من أسد وطيئ وتميم وغيرهم، وتابعته منهم جماعات، غير أن كثرة البدو المحيطين بجنوبي العراق لم تستجيب له، فأرسل أولاده يحيى والحسين ومحمداً ألي عشائر قبيلة كلب في بادية السماوة بين العراق والشام، فأصاخوا لهم وبايعوهم، وكان مما زعموه لهم أنهم من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، حتى إذا رأوهم يدعونهم إلى العقيدة القرمطية نفروا منهم ولم يتابعهم إلا بنو العليص، إذ بايعوا في آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه متلقباً لهم بالشيخ وزاعماً أنه أبو عبد الله علي بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر

---

(١) طمر :: فرس .

(٢) كان أحد دعاة قرمط المهمين . الطبري ٩٤/١٠.

(٣) الدوري ص ١٦٥.

obeikandl.com

الصادق، وقيل بل زعم أن اسمه محمد بن عبد الله. وزعم لهم فيما زعم أن أباه – ودعاه أبا محمود – يدعو له، وأنه يتبعه في السواد بالعراق وفي المشرق والمغرب مائة ألف، وأيضاً زعم لهم فيما زعم أن ناقته التي يركبها مأمورة، وأنهم إذا اتبعوها في لقاء عدو نزل عليهم الفتح المبين، وتكهن لهم أو ادعى فيهم الكهانة، وأظهر لهم عضداً له ناقصة، وذكر أنها آيته[١]. ومضى في سنة ٢٩٠ بمن تبعوه يعيث فساداً في المدن السورية، وكانت تتبع حينئذ الدولة الطولونية، وكانت تعاني من ضعف شديد، وكانت قد ولت عليها طغجاً الإخشيدي قبل ولايته على مصر،فأرسل لابن زكرويه جيشاً سرعان ما هزم وقتل قائده[٢]. وقصد ابن زكرويه الرقة في جمع كثير يقتل وينهب، وواقع هناك جيشاً للخليفة المكتفي وهزمه وقتل قائده. وحاصر دمشق غير أنها صمدت لحصاره، وسرعان ما قتل على أبوابها، فبايع أتباعه أخاه الحسين ونادوا به خليفة من بعده، وزعم لهم بدوره أنه أحمد بن عبد الله بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأظهر لهم شامة في وجهة الملثم ذكر أنها آيته، ولذلك سمي بصاحب الشامة، ووفد عليه ابن عم له يسمى عيسى بن مهرويه، فزعم أن مثله من نسل جعفر الصادق ولقبه المدثر، وزعم أنه المقصود بسورة المدثر[٣]! وأجابه كثير من البدو، واشتدت شوكته، فزحف بمجموعه على دمشق وخافه أهلها فصالحوه على خراج يؤدونه إليه. وتقدم إلى حمص، فتغلب عليها، وخطب له على منابرها باسم المهدي المنتظر، ثم سار إلى حماة والمعرة وبعلبك يقتل ويسفك الدماء وينهب. ونزل سلمية، وبدأ يقتل من بها من بني هاشم ثم قتل أهلها أجمعين حتى صبيان الكتاتيب، ولم يبق بها عيناً تطرف[٤]. ويظهر أنه كان يريد القضاء على الأئمة المستودعين من أسرة القداحين ومن وراءهم من الأئمة المستورين إن كان يوجد أحد منهم حقاً، حتى يصفو الجو له ولإمامته ودعوته وخلافته، ونرى الطبري يحتفظ بكتاب منه إلى بعض عماله يستهله على هذا النمط: "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدي، المنصور بالله، الناصر لدين الله، القائم بأمر الله، الحاكم بحكم الله، الداعي إلى كتاب الله، الذاب عن حرم الله، المختار من ولد رسول الله، أمير المؤمنين، وإمام المسلمين، ومذل المنافقين، خليفة الله على العالمين، وحاصد الظالمين، وقاصم المعتدين، ومبيد الملحدين، وقاتل القاسطين، ومهلك المفسدين، وسراج المبصرين، وضياء المستضيئين، ومشتت المخالفين، والقائم بسند سيد المرسلين، وولد خير الوصيين، صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين، وسلم كثيراً..."[٥].

---

[١] طبري ١٠/٩٥.

[٢] طبري ١٠/٩٧.

[٣] طبري ١٠/٩٦.

[٤] طبري ١٠/١٠٠.

[٥] طبري ١٠/١٠٥.

openkandil.com

وواضح أن الحسين بن زكرويه لم يكتف بأن يكون إماماً مستودعاً مثل القداحين، بل رأى أن يكون الإمام المستور نفسه، ولذلك ادعى له نسباً إلى محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق، وتلقب بالمهدي وخليفة الله أمير المؤمنين. وفسر منه عبيد الله المهدي راس الدولة الفاطمية، ومضى في فراره حتى شمالي إفريقيا ولما تكاثرت فظائعه وضج أهل الشام منه بالشكوى إلى الخليفة المكتفي أرسل إليهم جيشاً جراراً بقيادة محمد بن سليمان، فنازل الحسين وأتباعه بالقرب من حماة في المحرم لسنة ٢٩١ وسحقهم سحقاً ذريعاً. ففر كثيرون من جنده إلى البوادي، وفر على وجهه مع بعض خاصته إلى الشرق ميمماً الفرات، وأسروا هناك جميعاً، وصلبوا ببغداد مع عشرات من القرامطة جيء بهم من الكوفة، وكان بينهم بغداديون ذاقوا المصير نفسه[١]. ويذكر الطبري أن أخاً لصاحب الشامة – لعلة الأخ الثاني المسمى محمداً – عاث ببعض الأعراب في نواحي دمشق لسنة ٢٩٣ ثم صار إلى طبرية غلب عليها ودخلها وقتل عامة أهلها من الرجال والنساء ونهبها وانصرف إلى ناحية البادية[٢]. وأرسل زكرويه في السنة نفسها داعية له إلى بادية الشام يسمى أبا غانم، فالتف حوله كثيرون وانتهب بهم بعض المدن القريبة من البوادي مثل بصري وأذرعان، وتعقبتهم جنود الخلافة من ماء إلى ماء، وقتل أبا غانم أحد أتباعه[٣] فقضي على تلك الثورة. وبذلك تنتهي حركة زكرويه في بوادي الشام، إذ يقضي العباسيون عليهم هناك قضاء مبرماً، وأحكم لهم ذلك أنهم قضوا في الوقت نفسه على الدولة الطولونية التي كانت قد ضعفت ضعفاً شديداً، مما مكن لزركويه وأبنائه وأتباعه أن يحدثوا هناك شغباً وفتناً كثيرة.

واستعادت الدولة سيطرتها كاملة على سواد الكوفة ومن كان به من أتباع زكرويه ويذكر المؤرخون أنه أنفذ إلى البدو داعية له من أهل السواد يسمى القاسم بن أحمد يدعوهم للخروج معه ومع شيعته من سواد الكوفة، واجتمع له كثيرون، حتى إذا كان المحرم من سنة ٢٩٤ هاجم قوافل الحجاج في أوبتها من المسجد الحرام ونهب جميع ما كان معها من الأموال مما قدرت قيمته بنحو مليونين من الدنانير وقتل من الحاج نحو عشرين ألفاً، وبلغ النبأ بغداد، فندب له الخليفة المكتفي وصيف بن صوارتكين في جيش جرار، فلقيه في الرابع من شهر ربيع الأول وقتل من شيعته مقتلة عظيمة، وخلص بعض الجند إلى زكرويه فضربه بالسيف وهو فار ضربة اتصلت برأسه، فاستسلم، وأخذه أسيراً، وأسروا نائبه وخواصه وابنه وأقاربه وكاتبه وامرأته، وحمل وهو

---

[١] طبري ١٠/١٠٨.

[٢] طبري ١٠/١٢١ والنجوم الزاهرة ٣/١٥٨.

[٣] طبري ١٠/١٢٢.

جريح فتوفى في الطريق إلى بغداد من أثر الضربة[١]. وبذلك قضى على حركة زكرويه في سواد الكوفة بوادي الشام قضاء نهائياً.

وإذا كانت حركة القرامطة قد باءت في هاتين المنطقتين بإخفاق ذريع فإنها نجحت إلى حد بعيد في منطقة الأحساء البحرين على يد أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي الذي مر ذكره آنفاً، وكان من كبار دعاه حمدان قرمط، واستطاع أن يؤسس هناك دولة ظلت آماداً متطاولة إلى نحو منتصف القرن الرابع إذ دخلوا منذ سنة ٣٥٨ في طاعة الخليفة العباسي وخطبوا له على المنابر. وكانت تسود في دولة أبي سعيد الروح الاشتراكية التي بثها أستاذه حمدان قرمط، وعظم أمره. وكثيراً ما كان يحدث لعهد الخليفة المكتفي أن يتقدم بجنوده نحو البصرة، وتلقاه جيوش الخلافة، ويقتتل الطرفان قتالاً شديداً[٢]. وما زال يسوس دولته، حتى قتله غلام له صقلبي في سنة ٣٠١ وقتل معه جماعة من قواده[٣]، فقام بالأمر من بعده ابنه أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابي، ونراه يهاجم البصرة بأتباعه بمجرد استيلائه على الحكم[٤]، حتى إذا كانت سنة ٣٠٧ عاد غلى مهاجمتها وإعمال النهب والسلب فيها[٥]. ودخلا لسنة ٣١١ في ألف وسبعمائة من أتباعه، وضعوا السيف في أهلها، وقتلوا وإليها سبكاً المفلحي، وأحرقوا المربد وبعض الجامع ومسجد قبر طلحة، وظل بها سبعة عشر يوماً يحمل على إبله ما نهبه من الأموال والمتاع[٦]. وفي السنة التالية رصد الحاج في مقدمهم من مكة لشهر المحرم وأخذ يوقع بقوافلهم، وينهب الأموال، ويأسر ويقتل، وجاء الخبر إلى بغداد بذلك فوقع النوح والبكاء وخرج النساء منشرات الشعور مسودات الوجوه يلطمن ويندبن[٧]. وفي سنة ٣١٣ سار الحجاج من بغداد ومعهم جعفر بن ورقاء في ألف فارس، فلقيهم أبو طاهر، فناوشهم بالحرب، فخاف الناس ورجعوا إلى بغداد، فاتجه إلى الكوفة، فقاتلوه ورجحت كفته ودخل البلدة وأقام بها ستة أيام ينهب ويسلب، وكان مما نهبه منها أربعة آلاف ثوب وشي وثلثمائة راوية زيت[٨]. وفي سنة ٣١٥ خرج في ألف فارس وخمسة آلاف راجل متجهاً إلى الكوفة، وعلم المقتدر فجهز لحربه يوسف بن أبي الساج في عشرين ألفاً، وتقاتلا على أبواب الكوفة، ودارت الدوائر على ابن أبي الساج وأسر جريحاً، وقتلت جماعة كثيرة من

---

(١) طبري ١٠/١٢٤ وعريب ص ١١ والنجوم الزاهرة ٣/١٥٩.

(٢) طبري ١٠/٧٥، ٧٩، ٨٥.

(٣) طبري ١٠/١٤٨ والهمداني ص ١٤ والنجوم الزاهرة ٣/١٨٢.

(٤) الهمداني ص ١٤.

(٥) النجوم الزاهرة ٣/١٩٧.

(٦) الهمداني ص ٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/٢٠٧.

(٧) الهمداني ص ٤٣ والنجوم الزاهرة ٣/٢١١.

(٨) الهمداني ص ٤٨ والنجوم الزاهرة ٣/٢١٣.

obeikandl.com

أصحابه. وبلغ ذلك المقتدر فراعه الخبر، وندب مؤنساً لقتاله، فخرج بالعساكر إلى الأنبار في أربعين ألفاً، وانضم إليه أبو الهيجاء بن حمدان وأخوته في أصحابهم وأعوانهم، ووقعت بينهما مناوشات ليست بذات بال، مما أغرى أبا طاهر بمنازلة بلدان كثيرة في جنوب العراق سالباً ناهباً سافكاً للدماء[١]. وفي السنة التالية دخل الرحبة جنوبي قرقيسياء شمالي العراق، ووضع فيها السيف، فبعث إليه أهل قرقيسياء يطلبون الأمان فأمنها، ثم دخلها. وتوجه إلى الرقة، فأخذها، وتفاقم أمره وكثر أتباعه[٢]. حتى إذا كان موسم الحج لسنة ٣١٧ حدثت الطامة الكبرى إذ وافى أبو طاهر الحاج يوم التروية، وهم يهلون ويلبون، وقتل الحجاج قتلاً ذريعاً في فجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف، طرح كثير منهم في بئر زمزم، وعرى البيت من كسوته وقلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى هجر، وظل هناك حتى رد غلى موضعه في عهد الخليفة المطيع سنة ٣٣٩. ونهب جميع التحف التي زين بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة وما كانوا رصعوها به من الجواهر النفيسة، ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يصرعون حوله في المسجد الحرام، وهو ينشد مثل قوله:

أنا لله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ويقال إنه كان زنديقاً لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي فرائض الإسلام، مع تظاهره بأنه مسلم وزعمه أنه داعية عبيد الله المهدي بإفريقيا[٣]. ولم يحج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة ٣٢٦. خوفاً من شره وشر أتباعه من القرامطة، غير أن شره لم ينحسر عن العراق، إذ هاجم الكوفة لسنة ٣١٩، وعاود الهجوم عليها في سنة ٣٢٥ ونازلته جنود الخلافة في سنة ٣٣٠، ومات في شهر رمضان لسنة ٣٣٢ بالجدري بعد أن تقطعت بسببه أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها، وبعد أن طال عذابه ورأى في جسده العبر. وخلفه أخوه سعيد[٤] بن الحسن الجنابي، وهو الذي رد الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة، وكان العراق قد دخل في حكم البويهيين فضعف شأن قرامطة البحرين والأحساء، واضطروا بأخرة إلى الدخول في طاعة الخلافة العباسية ونبذ عقيدتهم القرمطية.

٥

---

[١] الهمداني ص ٥٢ والنجوم الزاهرة ٢١٧/٣.

[٢] النجوم الزاهرة ٢٢٠/٣.

[٣] الهمداني ص ٦٢ عريب ص ٩٥ والنجوم الزاهرة ٢٢٤/٣.

[٤] الهمداني ص ١٠٢ ، ١٣٩ والنجوم الزاهرة ٢٢٨/٣، ٢٧٥، ٢٨١.

obeikandl.com

أحداث مختلفة

لعل أهم ما أمر به المتوكل في أوائل خلافته وقف القول بخلق القرآن وإنهاء حمل الناس بالقوة عليه وما كان من العنف بجلة الفقهاء السنيين وفي مقدمتهم أحمد ابن حنبل ممن رفضوا اعتناق هذا القول، وكانت المحنة بذلك بدأت – كما مر في كتابنا العصر العباسي الأول – منذ عصر المأمون سنة ٢١٢، إذ جعل القول بخلق القرآن عقيدة رسمية للدولة وكتب إلى الآفاق بامتحان الفقهاء فيها، فمن لم يعلن جهاراً اعتناقه لها ضرب وقيد وأرسل إلى بغداد لمحاكمته وحبسه. وتظل المحنة قائمة في عهد المعتصم، وإن خفت حدتها كثيراً، ثم تعود إلى الاشتداد لعهد الواثق ويعود معها العنف بالفقهاء ممن لا يجاهرون بأن القرآن مخلوق. حتى إذا ولي المتوكل أمر بوقف هذا العنف وكل ما اتصل به من امتحان وأن يترك الناس الخوض في ذلك ويهتموا بالحديث والسنة[١]. وبذلك هيأ لأن يأفل شأن الاعتزال ورجاله الذين دفعوا إلى هذه المحنة وظلوا يمدونها بالحطب الجزل، حتى أطفأ المتوكل نارها المشتعلة وأحالها رماداً، وكان ذلك أثر بعيد في الحياة العقلية والفنية، فقد أفل نجم المعتزلة أصحاب الفكر الحر، وتألق نجم أهل السنة المحافظين، وأخذ الذوق المحافظ يسود في كل شيء في الشعر وفي الغناء، وحتى في الدراسات الدينية، إذ ظهر مذهب داود الظاهري الذي يرفض القياس.

وثار في أذربيجان لسنة ٢٣٤، محمد بن البعيث وقضى على ثورته. وتدخل سنة ٢٣٦، فيأمر المتوكل بهدم قبر الحسين في كربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره ويمنع الناس من إتيانه، فحرث الموضع وزرع ما حواليه حتى يزول أثره، وحلت بذلك محنة عظيمة على آل أبي طالب وشيعتهم. ويقول المسعودي إنه حين انتهى الفعلة إلى الحفرة وموضع اللحد لم يروا فيه أثر جثة ولا غيرها[٢]. ويقول الطبري: نودي في الناس: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى السجون، فامتنع الناس من المصير إليه[٣]. وكان ذلك إنذاراً شديداً للعلويين، فلم يتحرك منهم أحد لعهد المتوكل خشية بطشه، وبالمثل لم يتحرك الخوارج لا في الموصل ولا في خراسان.

وتظل الغزوات الصيفية للروم البيزنطيين – ويسمونها الصائفة – قائمة طوال عصير المتوكل، وينزلون في سنة ٢٣٩ دمياط وينهبون كثيراً من الأمتعة والأموال، ثم يفرون إلى البحر المتوسط وما وراءه[٤]. ويحاولون الإغارة على سميساط وبعض الثغور في شمالي الشام

---

(١) مروج الذهب ٣/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٥/٢.

(٢) مروج الذهب ٥١/٤.

(٣) طبري ١٨٥/٩.

(٤) طبري ١٩٣/٩ وانظر العرب والروم لفازيلييف ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ص ١٨٧.

والموصل، وينزل بهم على بن يحيى الأرمني في سنة ٢٤٥ هزائم متلاحقة[١]، ويدور العام، فينكل بهم في غزو الصائفة ويعود بأسلاب وغنائم كثيرة، كما ينكل بهم الفارس المغوار عمر بن عبد الله الأقطع وتكثر مغانمه، ويغزوهم الفضل بن قارن في عشرين مركباً ويفتتح حصن أنطالية[٢]. وما يزال غزو صقلية مستمراً في عهد المتوكل منذ نزول العرب بها في عصر المأمون حتى تستسلم نهائياً[٣]. وفي ديوان البحتري غزوة بحرية دمر فيها أسطول المتوكل بقيادة أحمد بن دينار أسطول الروم لم يعرض لها المؤرخون[٤].

ويولي المتوكل سنة ٢٣٧ محمد بن عبد الله بن طاهر الشرطة وأعمال السواد في العراق ونيابته في بغداد، وهي وظيفة تشبه وظيفة المحافظ لعصرنا، وظل يتولاها حتى وفاته سنة ٢٥٣ وظلت بعده في بيته طويلاً. وفي سنة ٢٤١ ثارت البجة في شمالي السودان على والي مصر وامتنعت من دفع الخراج، واشتبك معها محمد بن عبد الله المعروف بالقمى في سلسلة من المعارك توالت فيها انتصاراته، وما زال يقاتلهم حتى أنابوا إلى الطاعة وعادوا غلى أداء ما كانوا يؤدونه من الخراج[٥]. وفي سنة ٢٤٤ غضب المتوكل على بختيشوع المتطبب وصادر أمواله وأمر بنفيه إلى البحرين[٦]. ويقول المسعودي: "كانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها من استقامة الملك وشمول الناس بالأمن والعدل"[٧].

وخلفه ابنه المنتصر في شوال سنة ٢٤٧، وكانت خلافته قصيرة لم تزد على ستة أشهر، وفيها وجه جيشاً كثيفاً بقيادة وصيف لغزو الصائفة[٨]. ولعل أهم أعماله أنه أمر بالكف عن العلويين وألا يمنع أحد من زيارة كربلاء والنجف وما بهما من قبور آل أبي طالب، وأمر برد أرض فدك في الحجاز إلى أولاد الحس والحسين، وأطلق أوقاف العلويين جميعاً وأمر ألا يتعرض أحد لشيعتهم بأذى أو مكروه[٩]. وخرج لعهده ممد بن عمرو الشاري بناحية الموصل، وتجمع حوله كثيرون من الخوارج تزعمهم وحضهم على الثورة وانضم إليهم كثيرون من الأكراد، فوجه إليه جيشاً بقيادة سيما التركي، هزمه هزيمة ساحقة، وساقه مع طائفة من أصحابه أسيراً إلى

---

[١] طبري ٩/٢١٨.

[٢] طبري ٩/٢١٩.

[٣] العرب والروم ص ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٨٠ ، ٢٢٨ وما بعدها.

[٤] ديوان البحتري (طبع دار المعارف) ٢/٩٨٠.

[٥] طبري ٩/٢٠٣ وما بعدها.

[٦] طبري ٩/٢١١.

[٧] مروج الذهب ٤/٤.

[٨] طبري ٩/٢٤٠ والعرب والروم ص ٢١٧.

[٩] مروج الذهب ٤/٥١.

obeikandi.com

سامراء، فقتلوا وصلبوا جميعاً[١]. وفي عهده بدأ يعقوب ابن الليث الصفار ثورته في سجستان وتحرك إلى هراة[٢].

ويتولى الخلافة المستعين بالله نحو ثلاث سنين وثمانية أشهر، وفي عهده يعود أبناء عمه الطالبيين إلى التحرك، فيخرج بالكوفة لسنة ٢٤٨ يحيى بن عمر الطالبي حفيد زيد بن علي زين العابدين، ويرسل إليه المستعين بجيش كثيف يقضي على ثورته ويقتل ويحمل رأسه إلى بغداد ويصلب ويبكيه كثير من الشعراء لورعه وتقواه[٣]، وجيميه ابن الرومي في رثائه والتفجع عليه مشهورة، وفيها يقول:

سلام وريحان وروح ورحمة[٤] عليك وممدود من الظل سجسج

وفي سنة ٢٥٠ يخرج الحسن بن زيد، وهو من حفدة زيد بن علي زين العابدين ابن علي بن أبي طالب، وكان خروجه بطبرستان ويغلب هناك على بلاد الديلم جميعها[٥]، ويظل ثابتاً لجيوش الدولة العباسية حتى يلبي نداء ربه لعهد المعتمد سنة ٢٧٠ ويخلفه من بعده أخوه محمد[٦]. ويخرج على المستعين علويون مختلفون بالري وقزوين والكوفة ويقضى عليهم جميعاً[٧]. ويتحرك بعض الخوارج ويلقاهم المصير نفسه[٨]. وتحدث حينئذ أكبر فاجعة أصابت الغزاة المقاتلين في جبهة الروم إذ استشهد في سنة ٢٤٩ بطلان مغواران من أهل البأس والنجدة والمكيدة في الحروب، هما عمر بن عبيد الله الأقطع وعلي بن يحيى الأرمني اللذان طالما دوخا الروم وأنزلا بهم هزائم ساحقة، أما عمر فكان يغزو الصائفة في جمع من أهل ملطية فلقيه إمبراطور بيزنطة في جيش جرار بلغ خمسين ألفاً، ونشب القتال بينهما، واستبسل عمر في الجموع القليلة التي كانت مع استبسالاً رائعاً، ولكنهم استطاعوا لكثرتهم أن يحيطوا به، فاستشهد في ألف من المسلمين الأبرار، بعد أن أبلوا في المعركة بلاءً عظيماً. وأما على فكان قد انصرف من الثغور إلى ديار بكر شمالي العراق. وجاءه نعي عمر المفجع، فاستشاط غضباً وأسرع إليه في أربعمائة مقاتل، وهو لا يعلم عدة الروم، فأحاطوا به مثل صاحبه، ومضى إلى ربه شهيداً [٩].

---

[١] طبري ٢٥٥/٩ ومروج الذهب ٥٣/٤.

[٢] طبري ٢٥٥/٩.

[٣] طبري ٢٦٦/٩ ومروج الذهب ٦٣/٤ والفخري ص ٢٤٠.

[٤] سجسج: معتدل لا حار ولا شديد البرد.

[٥] طبري ٢٧١/٩ ومروج الذهب ٦٨/٤.

[٦] طبري ٦٦٦/٩ ومروج الذهب ٦٨/٤: ١٧٧.

[٧] مروج الذهب ٦٩/٤.

[٨] طبري ٣٠٨/٩.

[٩] طبري ٢٦١/٩ ومروج الذهب ١٢٥/٤ والعرب والروم ص ٢٢٠، ٢٢٤.

obeikandl.com

وبويع بالخلافة المعتز في المحرم من سنة ٢٥٢ وفي عهده أوقع مفلح بعبد العزيز ابن أبي دلف الثائر بالكرج وهزمه هزيمة نكراء[١]، ودخل مفلح لسنة ٢٥٥ طبرستان، وهزم الحسن بن زيد العلوي وأحرق منازله، وفر الحسن إلى الديلم وتوجه مفلح نحوه[٢]. وعلا حينئذ شأن يعقوب بن الليث الصفار، واستولى على كرمان وفارس[٣]. وأقطع المعتز حاجبه بايكباك مصر لسنة ٢٥٤ فولى عليها أحمد بن طولون، وسرعان ما أسس بها الدولة الطولونية.

وتولى الخلافة المهتدى في سنة ٢٥٥ ومكث في الخلافة أحد عشر شهراً، وكان صالحاً تقياً عادلاً طاهر السيرة، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب والاختلاف إلى القيان للسماع، ونبي قبة جلس فيها لاستقبال العام والخاص، والنظر في المظالم وأقل من المطعم والمشرب، وكان يخطب بنفسه خطبة الجمعة ويؤم الناس في المسجد الجامع، وكانت الخلفاء قبل تنفق على موائدها في كل يوم عشرة آلاف درهم، فأزال ذلك وجعل لمائدته وسائر مؤنة كل يوم نحو مائة درهم، وكان يواصل العبادة والصيام[٤]، فبدا غريباً عن روح العصر، وثقل حكمه على الأتراك فأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه. وفي عهد بدأ أمر صاحب الزنج يظهر على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع.

وخلفه المعتمد في رجب سنة ٢٥٦ وكان يؤثر اللذة ويعكف على الملاهي غير أنه رزق حظوة بأخيه أبي أحمد الموفق وكان حازماً مقداماً بعيد النظر عارفاً بأمور الحرب وشئون السياسة، فغالب على الخلافة وتدبيرها، واصبح المعتمد معه كالمحجور عليه. وكانت الخلافة العباسية تردت في هوة بعيدة القرار، فأعاد إليها هيبتها، وقضى كما مر بنا على ثورة الزنج قضاة مبرماً، وهزم يعقوب بن الليث الصفار هزيمة نكراء، اضطر على إثرها إلى الفرار إبقاء على نفسه من الموفق وجنوده. وتحركت حينئذ الخوارج في الموصل وخراسان، وقضى على حركاتهم جميعاً[٥]. وكان القواد من أصحاب الثغور وغيرهم لا يزالون ينازلون الروم في الصوائف وفي مقدمتهم البطل يازمان الذي نكل بهم لسنة ٢٧٤ ودارت السنة فغزاهم في البحر، وأخذ لهم أربعة مراكب[٦].

ويلي الخلافة المعتضد لسنة ٢٧٩، وكان صورة قوية للحزم والجد اللذين ليس بعدهما جد وحزم، كما كان فارساً شجاعاً وبطلاً مغواراً أنقذ الخلافة مع أبيه الموفق من الزنج الثائرين الذين

---

[١] طبري ٣٧٣/٩.

[٢] طبري ٣٨٢/٩.

[٣] طبري ٣٨٢/٩ وما بعدها.

[٤] مروج الذهب ٩٧/٤، ١٠٣.

[٥] طبري ٥١٢/٩، ٥٣٢.

[٦] طبري ١٣/١٠ وما بعدها.

obeikandl.com

دوخوا القواد قائداً تلو قائد. وفي أيامه سكنت الفتن وصلحت البلدان واستقامت له الأمور ورخصت الأسعار. وأديل له دائماً من المخالفين عليه، وكان جيوشه تغدو وتروح بالنصر، وممن ظفر بهم هرون الشاري الذي خرج بالموصل[١] وثار عليه بأصبهان والجبل في سنة ٢٨٣ بكر بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي الشيباني فوجه إليه عيسى النوشري ففر من أمامه، ثم عاد إلى الظهور في سنة ٢٨٤، وقضي على ثورته. ونازل له السامانيون محمد بن زيد العلوي أخا الحسن الذي مر ذكره، إذ هاجموه بطبرستان وقتلوه على أبوابها[٢] لسنة ٢٨٧. ونازلوا له الترك وفتحوا حاضرتهم وأسروا ملكهم وامرأته خاتون ونحواً من عشرة آلاف مع ما أخذوا من الأسلاب والغنائم الوافرة[٣]، وغزت جيوشه الروم وكبدتهم خسائر فادحة، وغزاهم قائده راغب في البحر لسنة ٢٨٥، واستولى منهم على مراكب كثيرة، غير ما أغرقه، وضرب أعناق ثلاثة آلاف منهم وفتح كثيراً من حصونهم[٤]. ويغادر أبو عبد الله الشيعي في عهده الشام إلى المغرب وينزل بقبيلة كتامة ويدعوهم إلى عبيد الله المهدي جد الخلفاء الفاطميين الذي كان قد فر من الحسين بن زكرويه، على نحو ما أسلفنا في حديثنا عن القرامطة والإسماعيلية[٥]. ويحدث لعهد المعتضد حادث مفجع إذ يوغر دميانة أحد قواده في الثغور صدره على أهل طرسوس لشيء كان في نفسه منهم. ويشير عليه أن يحرق سفنهم التي كانوا يغزون فيها الروم. والعجب العجاب أن يصيخ له المعتضد المعروف بكياسته، غير أن هذا الشيطان عرف كيف يؤثر فيه، فأمر بإحراق جميع سفنهم البحرية وإحراق جميع آلاتها الحربية، يقول الطبري: "وكانت خمسين مركباً قد أنفقت عليها أموال جليلة فاضر ذلك بالمسلمين وكسر في أعضادهم وقوى به الروم وأمنوا أن يغزوا في البحر أو تدمر سفنهم وأساطيلهم فيه"[٦].

ويتولى الخلافة المكتفي سنة ٢٨٩، وكان يتوخى العدل والإنصاف في حكمه، فرد المظالم إلى أهلها ومالت إليه قلوب الرعية. وفي عهده تم القضاء على زكرويه القرمطي ومن بقى من أبنائه وفتح جيشه المقيم بطرسوس أنطاكية على ساحل البحر المتوسط عنوة، وقتل من أهلها خمسة آلاف، وأسر مثلهم، واستولى على ستين مركباً للروم حملها ما غنم من الرقيق والمتاع والذهب والفضة[٧]. ويذكر آدم ميتز أنه في السنة نفسها، وهي سنة ٢٩٣، استولى المسلمون

---

[١] طبري ١٠/٤٣.

[٢] طبري ١٠/٨١ ومروج الذهب ٤/١١٧.

[٣] طبري ١٠/٣٤.

[٤] طبري ١٠/٦٨.

[٥] انظر النجوم الزاهرة ٣/١٢٤.

[٦] طبري ١٠/٨٠.

[٧] طبري ١٠/١١٧.

على مدينة سالونيقي ثانية مدن الدولة البيزنطية وأسروا من أهلها اثنين وعشرين ألفا[١]. وفي السنة التالية غزت جنود المكتفي سلندو وآلس وفتح الله عليهم وقتلوا من أهلهما مقتلة كبيرة[٢]. وفي السنة نفسها ظهر السفياني بالشمام، ودعا إلى نفسه، وتبعه نفر، فحملوا جميعاً مقيدين إلى باب المكتفي[٣].

ويخلفه أخوه المقتدر سنة ٢٩٥ وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وما يوافي شهر ربيع الأول لسنة ٢٩٦، حتى يجتمع كثيرون من الكتاب والقضاة وذوي الرأي ويجمعوا على خلعه وتوليه ابن المعتز، وتتم له البيعة، ولا يكاد يمضي عليه يوم وليلة حتى ينتقض الأمر عليه كما مر بنا في غير هذا الموضع. فيقتل وترد الخلافة على المقتدر، ويصبح لعبة في أيدي الترك يحركونه كما يشاءون، وتعود الدولة إلى سيرتها القديمة السيئة قبل المعتمد وأخيه الموفق. وكان في بيت المال يوم تولي الخلافة خمسة عشر مليوناً من الدنانير بددها كلها. وبدد معها القناطير المقنطرة من الأموال التي كانت تجبي من أطراف الدولة الواسعة. وتحكمت أمة "شغب" ووصيفاتها في شئون الدولة، وعاد الأتراك إلى طغيانهم وفسادهم، فكثرت الرشوة وعم الظلم والبغي، وكثر الوزراء وكثرت مصادراتهم ومصادرات الكتاب والتجار. كما كثر الاستيلاء على أموال ذوي اليسار بغير حق، مما ألممنا به في غير هذا الموضع. وكان هذا الفساد سبباً في كثرة الفتن والثورات، وما توافي سنة ٣٠٠ للهجرة حتى يثور على الدولة بطبرستان والديلم الأطروش العلوي وهو الحسن بن علي الحسني، لقب نفسه بالداعي، واستطاع أن يدخل في الإسلام كثيرين استجابوا له، وبني لهم المساجد، وكان حصيفاً فاضلاً أصلح الله الديلم به[٤]. وأغار الروم على اللاذقية بحراً وسبوا منها خلقاً كثيراً، ورد دميانه قائد الأسطول العربي في البحر المتوسط على هذا الغزو في السنة نفسها وهي سنة ٢٩٨ فغزا بأسطوله قبرص وفتح بها كثيراً من الحصون وحرق وسبي كثيرين[٥]. وفي سنة ٣٠٤ غزا مؤنس بلاد الروم من ناحية ملطية وفتح حصوناً كثيرة[٦]، ورد الروم على هذا الغزو في سنة ٣١٤ فدخلوا ملطية بالسيف، وقتلوا وسبوا، وظلوا فيها أياماً[٧]. وفي سنة ٣١٣ بلوخستان، وكانت لا تزال وثنية فدخلت في دين الله.

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز ترجمة الدكتور أبي ريدة (الطبعة الأولي) ١/٥.

(٢) طبري ١٠/١٣٠.

(٣) طبري ١٠/١٣٥.

(٤) طبري ١٠/١٤٩ ومروج ال ذهب ٤/٢١٩ والنجوم الزاهرة ٣/١٨٥.

(٥) مورج الذهب ٤/٢١٨.

(٦) النجوم الزاهرة ٣/١٩٠.

(٧) النجوم الزاهرة ٣/٢١٥.

obeikandl.com

وتولى الخلافة القاهر بالله سنة ٣٢٠، وكان مولعاً بالشراب والغناء، وكان سفاكاً للدماء، شديد البطش بمن يغضب عليه من الأتراك، وقتل منهم نفراً في مقدمتهم مؤنس الملقب بالمظفر أكبر الحجاب في عصره وعصر المقتدر، وهابه الناس وخشوا صولته، ومع إدمانه للخمر أمر بتحريمها وتحريم السماع وقبض على المغنين وكسر آلات اللهو وأمر بتتبع الجواري من المغنيات[١]، وما زال مخوف السطوة حتى احتيل عليه عبد سنة ونصف من خلافته فخلع وسملت عيناه، وهو أول من عوقب هذا العقاب الصارم من الخلفاء، وهو عادة بيزنطية ذميمة، وقد عاش بعدها سبعة عشر عاماً.

وخلفه الراضي بالله ابن أخيه المقتدر سنة ٣٢٢، وكان سمحاً جواداً مقرباً للعلماء والأدباء، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه إلا بخلعة أو صلة، ومن أهمهم أستاذه الصولي أبو بكر محمد بن يحيى وابن الأنباري. وخصة الصولي بترجمة ضافية في كتابه الأوراق، في القسم الخاص بأبناء الخلفاء، روي فيها طائفة كبيرة من أشعاره، وهو آخر خليفة له شعر مدون، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجند، وآخر خليفة خطب في صلاة الجمعة، وآخر خليفة جالس الندماء[٢]. وفي عهده قتل ابن مقلة الأديب والخطاط المشهور بعد أن اعتلى كرسي الوزارة مراراً. وعظم أمر ابن رائق بعد توليه الوزارة، إذ قلده الراضي جميع أمور الدولة، غير أنه لم يلبث أن صار محجور عليه وكالأسير في يده[٣]. وفي أوائل عهده سنة ٣٢٤ شن سيف الدولة الحمداني أول حرب على الدمستق في آمد[٤]، وتوالت بعد ذلك حروبه مع البيزنطيين.

ويتولى الخلافة المتقي سنة ٣٢٩، وكان ناسكاً تقياً يصوم الدهر، ولم يشرب النبيذ قط ولا اتخذ جلساء ولا ندماء، وكان يقول: المصحف نديمي ولا أريد جليساً غيره، غير أنه كان تعس الحظ إذ جاء بأخرة وقد فسدت الأمور وأفلت الزمام من يد الدولة، لاشتداد المنافسة بين الوزراء والأمراء وخاصة آل البريد بالموصل. وبلغ من اضطراب الأحوال أن استولى أبو الحسين البريدي على بغداد، ومضى البريدي يسوم الناس ظلماً فادحاً في الخراج وغير الخراج ويأخذ أموال التجار وغيرهم غصباً، أما الخليفة فلجأ إلى الحمدانيين في الجزيرة، وما زال ينتقل معهم غلى أن قدموا به إلى بغداد وهرب منها البريدي، وخلع حينئذ على الحسن بن عبد الله بن حمدان ولقبه

---

[١] التنبيه والإشراف ص ٣٨٨ والنجوم الزاهرة ٢٣٩/٣.

[٢] النجوم الزاهرة ٢٧١/٣.

[٣] النجوم الزاهرة ٢٥٨/٣.

[٤] نفس المصدر والصفحة.

بناصر الدولة وعلى أخيه علي ولقبه بسيف الدولة[١]. ولم تهدأ الأمور في بغداد فقد تفاقم أمر العيارين وازداد النهب حتى خلت الدور من أهلها وعطلت المساجد والأسواق وأغلقت الحمامات. وكأنما كتب على المتقي أن يعيش سني خلافته بائساً تعيساً. حتى القصور وقبابها يصيبها الدمار فقد سقطت لأوائل خلافته قبة قصر المنصور الخضراء، وكأنما كان ذلك إيذاناً بأفول نجم الدولة العباسية، إذ كانت تلك القبة تاج بغداد وعلمها المعلم[٢]. وفي سنة ٣٣١ زحف الروم على أرزن بأرمينية وميافارقين ونصيبين بديار بكر، فقتلوا وسبوا كثيرين، وطلبوا من أهل مدينة الرها منديلاً من كنيستها زعموا أن المسيح عليه السلام مسح به وجهه فارتسمت صورته فيه، وقالوا إن سلمتموه لنا أطلقنا كل من بأيدينا من أسرى المسلمين. وكوتب الخليفة المتقي في ذلك، فاستفتي الفقهاء والقضاة، واختلفوا في الرأي، ورجحت كفة من قالوا بإعطائهم إياه، لأن خلاص المسلمين من الأسر أوجب. فأرسل المنديل إلى الروم وأطلقت الأسارى، وحملوا المنديل إلى القسطنطينية، وخرج البطريرك ورجال الدين والدولة لاستقباله في موكب كبير[٣]. وما زالت الأمور تسوء والحكم يزداد فساداً، وتوقف جهاد الروم، ونهب الحجاج وقطعت الطرق، وأخذت دعائم الدولة تتداعي تداعياً شديداً، ولم يلبث توزون القائد التركي للمتقي أن غدر به، فقبض عليه وخلعه، لقاء ستمائة ألف دينار أخذها من أحد الطامحين إلى الاستيلاء على الخلافة، وتولت الجارية الشيرازية "حسن" سمل عينيه بيد غلام لها سندي. وعاش بعد خلعه خمساً وعشرين سنة[٤]، ومات توزون بعد خلعه بقليل.

ويخلفه المستكفي سنة ٣٣٣ بعد أن تآمر عليه مع توزون والجارية الشيرازية، ونادراً ما كان يهنأ بأيامه في الخلافة، إذ كان يتقاذفه الترك وهذه المرأة الجشعة، فلم يهدأ له بال. ولم يدر عليه عام في خلافته حتى دخل بنو بويه بغداد وصارت إليهم مقاليد الأمور، وسرعان ما طلبوا إليه أن يخلع نفسه، فنزل على مشيئتهم، غير أنه اشترط ألا يقطع شيء من أعضائه، وكان المطيع أخو المتقي هو الذي خلفه فأمر بأن تسمل عيناه انتقاماً لأخيه. وبذلك انتهت الحقب التي استولى فيها الأتراك على مقاليد الخلافة العباسية، وأنزلوا بالخلفاء مالا يطاق من الذل والهوان.

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/٢٧٤ وما بعدها.

(٢) النجوم الزاهرة ٣/٢٧٠

(٣) الهمداني ص ١٣٥ والنجوم الزاهرة ٣/٢٧٨ ومتز ١/٥.

(٤) الهمداني ص ١٤٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢٨٢ ومتز ١/١٦.